

رواية

الدكتورة

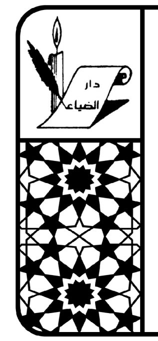
دانة أحمد الجدع



ISBN 978-9957-05-216-4







عمان - الأردن
صندوق بريد: ٩٢٥٧٩٨ - الرمز: ١١١٩٠
هاتف وفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٧٨٥٠٢
البريد الإلكتروني: info@daraldia.com
الموقع على الإنترنت: www.daraldia.com

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠١١/١٢/٤٣٢٥

٨١٣,٩
الجدع ، دانة أحمد
أغلى ما أملك دروب الأشواك / دانة أحمد الجدع ._ عمان : دار الضياء للنشر والتوزيع ، ٢٠١١
(٢٠٠ ص) .
ر.إ. (٢٠١١/١٢/٤٣٢٥).
الواصفات : // القصص العربية // العصر الحديث /
■ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جميع الحقوق محفوظة

١٤٣٣ هـ | ٢٠١٢ م

تصميم الغلاف: أنس أحمد الجدع
رسمة الغلاف: دانة أحمد الجدع

الإهداء

أهـدي هـذه الروايـة إلى والـدي ووالـدتي، كـشكر بـسيط علـى مجهودهما المتواصل في العناية بي وبإخوتي، كما أهـدي هـذه الروايـة إلى إخوتي الأعزّاء.

وأهدي الرواية أيضاً لكل أخٍ عُني بأخته، وأدعو أن يرزقهمـا الله المحبّة والسكينة.

■ ■ ■

بسم اللّه الرحمن الرحيم

بسم اللّه وحده لا شريك له

بسم اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد

■ الكاتبة

الدكتورة دانة أحمد الجدع، مواليد ١٩٨٤ م الدوحة–قطر.

مؤلفة الروايات:

– الخامسة مساء الجمعة

– أمل في القمر

– إلى من قد لا ألتقيه

– وماذا بعد؟

تخرجتْ من كلّية الطب في الجامعة الأردنية عام ٢٠٠٧–٢٠٠٨، بشهادة الباكلوريوس في الطب البشري، وعملتْ في المستشفى الإسلامي في قسم الأمراض الباطنية.

باشرتْ كتابة الرواية "أغلى ما أملك" كسلسلة من ثلاث روايات منفصلة، وألحقتْها بمجموعة من الرسومات الموضّحة للحدث.

البريد الإلكتروني:
Danajada84@yahoo.com

الموقع الشخصي:
www.dr-danajada.com

■ ■ ■



■ المقدمة

قالت لي أمّي ذات يوم: لم يرزقني الله بإخوان، فـاعلمي أن الأخ هو أكبر نعمة في الدنيا.

كان هذا يوم بكيـتُ لهـا أخـي التـوأم، إنـه يقـاسمني طعـامي، ولباسي، وألعابي، حتى أننا تقاسمنا الرحم نفسه!

فضحكت أمي وقالت لي تلك الكلمات، ولم أدر وقتها أنها كانت آخر ما تعظني به.

لم تناهز والدتي الـثلاثين، ومـع ذلـك لم تُفـق في اليـوم التـالي، أذكر أن الأطباء قد ذكروا لنا شيئاً يتعلـق بالـدماغ، وتخثـرات الـدم... لفتاة بعمر الثامنة كان هذا أقصى ما تستوعب.

لستُ أدري كيف استطاع أخي أن يحبس دمعته، ولكنه حبسها عندما رآني أذرف كل دمعة استطاعت أن تذرفها عيناي.

تركتني أمي، أمي لن تعود.

■ ■ ■





■ الجزء الأول ■

■ الفصل الأول | أحمد

كنا في الثامنة من العمر عندما دخلت منزلنا امرأة غريبة، لم يمض على وفاة والدتي أكثر من شهرين، وها نحن الآن نستقبل أخرى.

دخلتْ إلى جانب والدي، وكان عليّ أنا وهالة استقبالها والتعرف عليها.

كانت في منتهى الجمال، طويلة ورشيقة، ذات شعر بني فاتح، ينسدل برقة إلى أسفل ظهرها، وعيون عسلية جميلة، كما تغطي شفتها ألوان برّاقة، وتعلو عينيها لمسات ساحرة من المكياج.

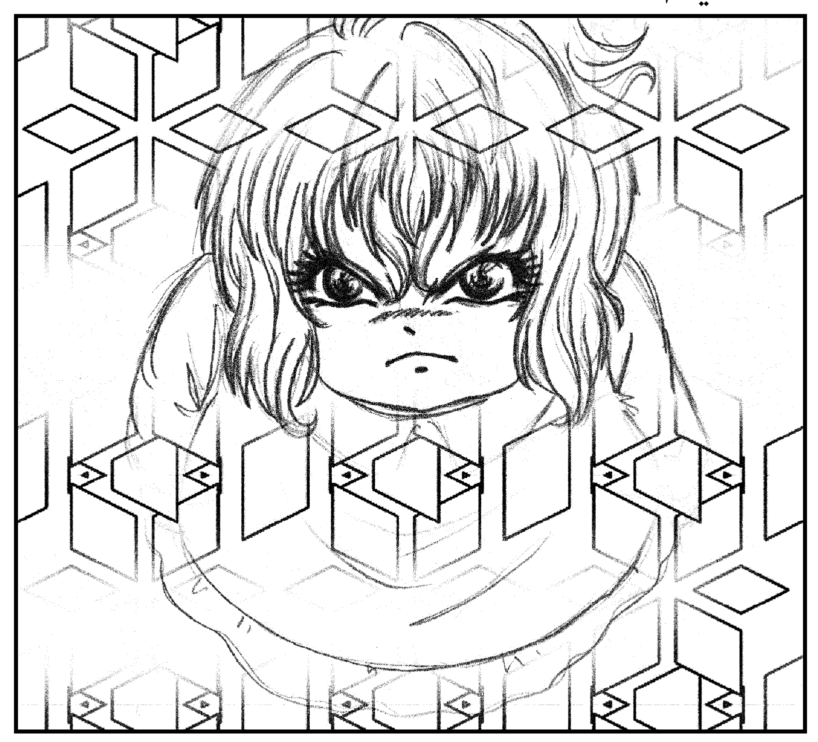
ما تزال ترتدي الثياب البيضاء، وتدخل المنزل ممسكة ذراع والدي بكل سعادة.

هذه هي، إنها بديلة والدتي، هذه من ستعيش معنا العمر كله.

نظرتُ إلى هالة التي كانت تقف إلى جانبي، فرأيتها ترمق زوجة أبي بعيون لن أنساها طوال العمر، كان الكره ينطلق من عينيها، والحقد والرغبة في الانتقام، إنها عيون تقول بكل وضوح "اخرجي من هنا".

أمسكتُ ذراع هالة أحاول تشتيتها عن زوجة أبي ولو للحظة،

ولكن عيونها كانت متسمّرة في عيون زوجة أبي، ولكـن مـا لاحظتـه أن زوجة أبي لم تكن تملك عيوناً أرق من عيون هالة.



■ ■ ■

■ الفصل الثاني | هالة

كنـت في الخامـسة، وكنـت ألعـب بـأدوات المطـبخ مـن كـؤوس وأطباق، كانت اللعبة المفضلة لـدى جميـع الفتيـات، بينمـا كـان أخـي يلعـب بالـسيارات والطـائرات البلاستيكية الرديئـة الـصنع، الـتي لا تصنع شيئاً سوى الانصياع إلى حاملها يميناً ويساراً، إلى أن تتكسر بعد يوم أو يومين، ثم الحصول على سيارة أخرى.

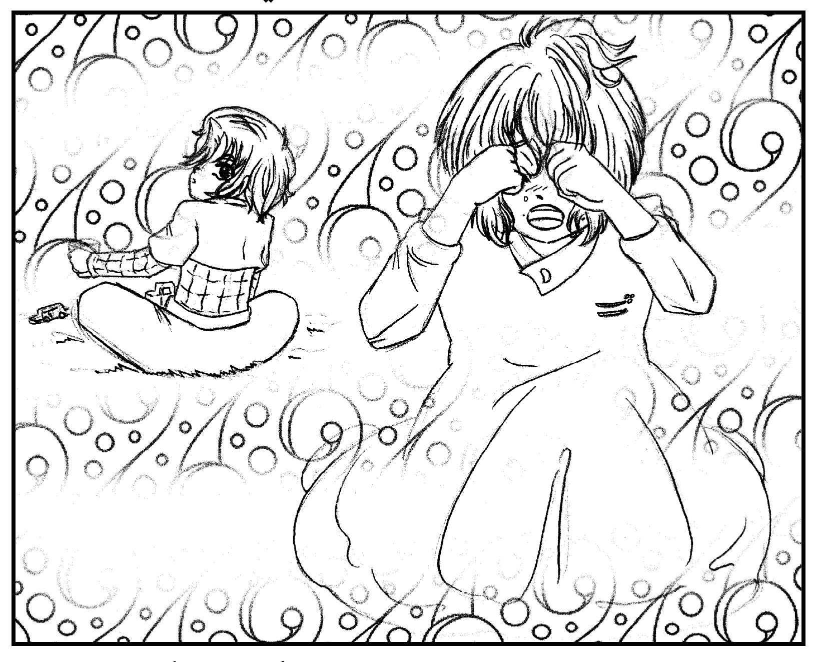
كنت أعتني بألعابي، فلم نكن نحصل على الكثير مـن الألعـاب، فسكننا ريفي يبعد عن المدينة ما يقارب ساعة من المواصـلات الـصعبة، وعمل والدي كان مرهقاً ولا يدر عليه المال الوفير، كمـا كانـت والـدتي تساعده في أعمال الزراعة، وتربية المواشي، إضافة إلى العمـل المتواصـل في تدبير شؤون المنزل.

كانت أمي مثابرة في عملها، حريصة على أولادهـا، حنيّـة علـى زوجها، حتى في أصعب الظروف كانت تدير الأمور بحكمة كبيرة.

وأخيراً شبّ الخلاف بيني وبين أخي، لم تكن المرة الأولى، ولـن تكون الأخيرة، فقد حصل على إحدى الكؤوس من لعـبتي، واسـتعملها لتعبئة الرمال والطين المتسخ، وصناعة طرق وجسور لسياراته التعسة!

بكاء، صراخ، حضرت أمي تستطلع الأمر، أخبرتـها أن أخي قـد

أفسد علي لعبتي، ولكن بحكمتها استدركت الأمر، وأهدتني إحدى كؤوسها الجميلة في المطبخ لأعوض عن الكأس البلاستيكي البسيط، وأتابع اللعب، كما نهت أحمد عن العبث بألعابي مرة أخرى.



استيقظت من النوم، لم تكن هذه المرة الأولى التي أستذكر فيها والدتي في منامي، فقد بتّ أحلم بأيامها الجميلة كل ليلة.

كنت أحنّ إليها كل يوم، كل ليلة، بل كل لحظة، أحنّ إلى حكمتها، أحنّ إلى حنانها، أحنّ إلى صدرها، أحنّ إلى عطرها، أحنّ إلى كل ما يتعلق بها.

أحنّ إلى اليوم الذي طلعت فيه الشمس بوجودها، أحنّ إلى الليلة التي أنار البدر محياها فيه، أحنّ إلى ليلة أغمضت فيها عيني وأنا على يقين أنها إلى جانبي، وأنها ستكون إلى جانبي مدى الدهر.

هل كنتُ الوحيدة التي تفكر بهذه الطريقة؟ ألم يقضِ والدي وقتاً أطول إلى جانبها، ألم يكن عليه أن يتعلق بها أكثر منا؟ ألم يكن الحزن يعتصر قلبه كما يعتصرنا؟

كنتُ أنكر الواقع، أنكر كل ما أسمع، أنكر كل ما يجري وما سيجري إلى أن حضرتْ، فتحتِ الباب بكل ثقة ترتدي أجمل الثياب، وتتزين بأجمل الألوان، تزهو بنفسها وبجمالها المصطنع. تغطي جميع عيوبها بأحدث المستحضرات، من تظن أنها تخدع؟

دخلتْ المنزل بابتسامة الفائز، لقد حصلتْ عليه، إنه إلى جانبها، يسير بمسيرها، ويتوقف بتوقفها، وهذا منزلها، وهذا الحقل الذي تعبت أمي في العناية به بات حقلها، وهذه الأطباق التي غسلتها أمي مدة عشر سنين باتت أطباقها، وهذه الأغنام التي علفتها أمي بجد باتت أغنامها، وهذا الفراش الذي نامت عليه أمي أسعد أيامها بات فراشها، وهذا الولد الذي يقف إلى جانبي بات خادمها.

أما أنا فلا، لن تحصل مني على شيء، لن أكون لها سوى

الشوكة في الحلق، سوى السوس في السن، سوى الجراد في الحقل، سوى الطحلب في الواحة.

هذه ليست أمي، هذه ليست فرداً من عائلتي، هذه عدوتي، وقد بدأت المعركة.

وكذلك كان رأيها بي، وكذلك رمقتني بتلك العيون الباردة، تتوعد وتهدد بصمت، تفكر وتخطط بحذر، كيف يكون الانتصار حليفها، وكيف تلحق أكبر قدر من الخسائر بأعدائها.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث | أحمد

لست أدري متى بدأت المعركة، ربما منذ اللحظة التي خطتْ فيها المنزل، ولكن ما أعرفه الآن أنني جزء لا يتجزأ منها، معركة لا أظن أننا سنربح فيها مهما حاولنا.

ربما لم أكن واضحاً كما كانت هالة، ولكنني لستُ ساذجاً، فهذه المرأة لا تنوي أن تحبنا، ولا أن تحنو علينا.

كانت جميلة وجذّابة، وكان والدي سعيداً بها جداً، وكانت تجتذبه إلى صفها كل يوم بدهاء، أتحبه كل هذا الحب، أم أن هذا كله كان جزءاً من اللعبة؟

عليّ أن أعترف أنني لا أفهم الفتيات، ولا أحب أن أفكر كيف يفكرْن، ولكن كل ما أعرفه الآن أنه إذا ما نشبت أي حرب في هذا المنزل، فسأكون في صف هالة.

في الأيام الأولى كان الغداء يحوي أربعة أطباق، لم تكن هالة تتناول طعامها، وأظن أن هذا كان يسعد زوجة أبي، فبمرور الأيام بات الغداء يحوي طبقين اثنين، وكنا نتناول الطعام بمفردنا، الذي كان عبارة عن خبز جاف نتناوله خلال اليوم، بحجة أن هالة لا تحب تناول الغداء معها.

بمرور أسبوع، أقنعتْ أبي أن ذهابنا إلى المدرسة البعيدة يشكل خطراً علينا، وأن العلم لن يفيدنا في شيء، فمن الأفضل أن أتعلم تربية المواشي، وأن تتعلم هالة أعمال المنزل.

هكذا انقطعنا عن الدراسة، وبدأنا العمل الشاق في المنزل.

كنتُ أخرج في الفجر بالخراف، لم أكن خبيراً في هذه الأمور، ولم أعرف أين تذهب الخراف في العادة، فتركتها تسير حيث تشاء، ومن حسن حظي أن كلب حراستنا "سحاب" كان أخبر في قيادة القطيع، فقد تولى تجميعها معاً وقيادتها إلى حيث ترعى.

لم أصطحب معي ما يؤكل، ولم يكن في المرعى سوى الأعشاب التي تعلف الخراف، لذلك قضيتُ اليوم دون طعام، وعدتُ إلى المنزل في المغيب، أُدخل الخراف إلى الحظيرة سالمة آمنة.

دخلتُ المنزل، وكان الهدوء مزعجاً، لم أفكر في أحد سوى هالة، دخلتُ حجرتها فوجدتها ما تزال مستيقظة تجلس على فراشها.

كان الغضب واضحاً في وجهها، والدموع تكاد تسيل من عينيها، مرّ زمن ولم أر فيه ابتسامة على شفتها، أو البريق الجميل في عينيها الخضراوتين.

اقتربتُ منها وجلستُ على الفراش أسألها عن يومها، ولكنها لم تجب.

لم يصعب علي ملاحظة اللون الأحمر على خدها الأيسر، فسألتها على الفور: هل قامت بصفعك؟

■ ■ ■

■ الفصل الرابع | هالة

كنتُ أرسم لوحة جميلة، أشجار وأزهار، بحيرة ينعكس عليها ضوء الشمس.

كنتُ سعيدة جداً بها، وحان الوقت لألونها، فحضر أحمد وتبرع بتقديم ألوانه الخاصة التي كانت أفضل من ألواني، وقمنا بالتلوين معاً.

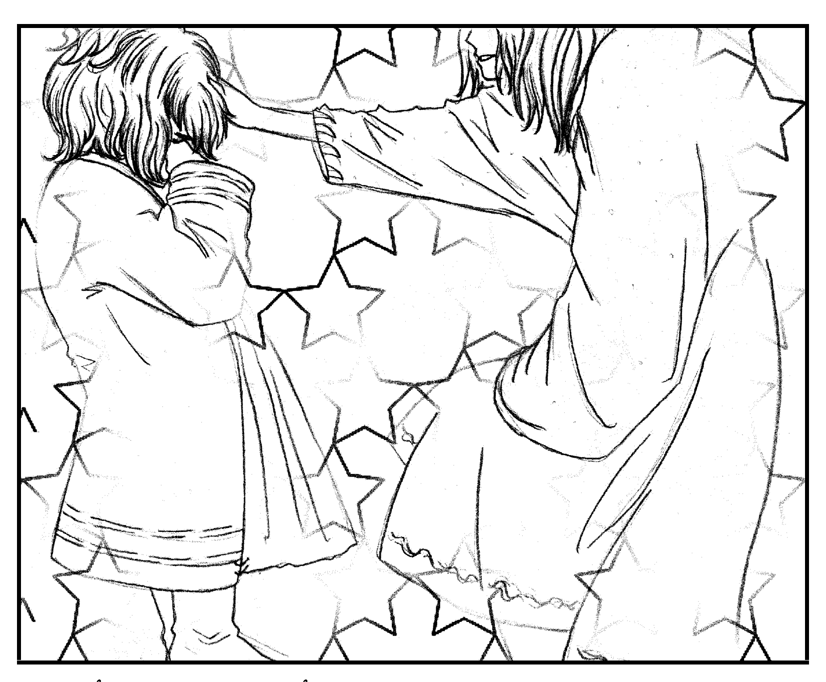
أخيراً لاحظت أن أحمد لا يجيد التلوين، فقد كان الجزء الذي قام بتلوينه سيئاً للغاية، أفسد اللوحة بالكامل.

حضرتْ والدتي لِما سمعته من صراخ وبكاء. قالت بهدوء: ماذا جرى؟

نظرتْ والدتي إلى اللوحة، كانت الحقيقة أن الجزء الذي قمتُ بتلوينه لم يكن يفوق الإتقان الذي قام أحمد بتلوينه!

ولكن كعادة والدتي فقد قامت بإعادة الرسمة معنا، والتلوين بتمهل حتى أتممنا اللوحة ثانية، وقمنا بتعليقها على باب المنزل.

لا أدري أين هي اللوحة الآن، فما إن استيقظتُ من نومي حتى تلاشت كل الذكريات المتعلقة بها، حيث كانت زوجة والدي تقوم بإيقاظي.



لم تكن تفعل ذلك بسعادة، كان عليها أن تـوقظني حتـى أتنـاول الإفطار معهم.

لم يكن غريباً أن تنزعج من وجودنا على مائدة الإفطـار بـالقرب من فارس أحلامها، الذي قد تخلى عن سابقتها ببساطة.

لم أتناول شيئاً مما تقدمه لي، حيث كنتُ أتصوّر أن سموم الدنيا كانت في ذلك الطبق، وما كنت لأتناول قطعة واحدة منه.

كنتُ عنيدة في هذا الشأن، بينما كان أحمد يتناول القليـل، كـان من الواضح أنه قد فقد شيئاً مـن شـهيته، ولكـن الأنظـار كانـت تحـوم

حولي حيث أنني لم أكن لأتناول لقمة واحدة من طبقها.

كنتُ ساذجة لأفكر أن والدي سيأبه لذلك، بل على العكس، استطاعتْ إقناعه أننا لا نريد تناول الطعام إلى جانبها، وباتت تتناول الطعام معه وحدهما، أما أنا وأحمد فقد كان الفتات نصيبنا.

أسبوع مضى، وقد أقنعتْ والدي بأن نترك الدراسة، لتقوم باستعبادنا في منزلنا، وتسخيرنا لخدمتها الأبدية.

كانت سعيدة بذلك، فقد كان يحلو لها أن توقظني وقت تشاء، وتلقي بالمكنسة على فراشي حتى أقوم بتنظيف المنزل منذ الصباح الباكر.

كان والدي قد غادر المنزل، وأخي أحمد قد خرج بالقطيع، وبقينا وحدنا، لتظهر القلوب على حقيقتها.

ولماذا أقوم بالتنظيف؟ أليس هذا هو منزلها؟ هل تريد الحصول على كل شيء دون تعب؟

وماذا سأجني من ذلك؟ إنها تكرهني على كل حال، ساعدتُها أم لم أساعدها.

وما الذي سيحصل إن لم أساعد؟ ستكرهني؟ ستضربني؟ وماذا في ذلك؟ هذا أقصى ما تستطيع عمله.

بالفعل كانت هذه هي الخطة، لم أقم بأي عمل، ورفضتُ كل طلباتها، وتركتها تفعل ما تشاء، تشتم وتلعن وتصرخ دون أن أبالي، وأخيراً بدأتْ تصفعني.

انتهى الأمر على ذلك، وكما توقعتُ، هذا أقصى ما كانت تستطيع فعله، هل يعني ذلك أنني قد فزت؟

دخل أحمد حجرتي في المساء، وكان من السهل أن يلاحظ التورم في وجهي، والاحمرار على خدي الأيسر من أثر الصفع.

كانت صفعاتها شديدة، ولكن الحقد في قلبي كان أصلب من أن أهتز لشيء كهذا، وأقنعتُ نفسي أنني انتصرتُ، وأنها استهلكتْ آخر ورقة تملكها، ولم أدرِ وقتها أنني كنتُ صغيرة وساذجة.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس | أحمد

رفضت هالة أن تخبرني بالتفاصيل، ولكن هل كان ذلك مهما؟

رؤيتها في هذه الحال كان كافياً لأفهم كل ما جرى، وأشعر بالمصائب تنهال علينا يوماً تلو الآخر.

هذه المرأة كارثة حلّت علينا، وعلينا أن نتصرف، بل عليّ أن أجد حلاً، حيث كنتُ أنا بعيداً عن المشاكل بالنسبة لهالة التي تضطر للبقاء إلى جانبها كل يوم.

خرجتُ في الصباح الباكر بالقطيع إلى المكان نفسه، وبقيتُ أفكر هناك بهالة، ماذا ستفعل بها اليوم؟ هل يعقل أن تتركها وشأنها؟ لا أظن أنها ستفعل، ولكن ماذا غير الضرب؟

بقيتُ أفكر طول اليوم، وفي وقت العودة بدأتُ أعدّ الخراف، ياللهول! إنها تنقص خروفاً!

ركضت في كل مكان، بحثت طويلاً، أرسلتُ سحاباً ليبحث عن الخروف، لا فائدة، إنه ليس في أي مكان!

عدتُ أعدّ الخراف ثانية، إنها تنقص خروفاً، وأنا الذي ظننتُ أنني بعيد عن المشاكل! ماذا سأفعل الآن؟ كيف لي أن أعود إلى المنزل دون خروف؟

بقيتُ ساعة أفكر، وحلّ المساء، بات من الصعب أن أراقب الخراف، ولكن ما باليد حيلة، عليّ أن أعود، لربما لم ينتبه أحدهم إلى الخروف الضائع.

عدتُ إلى المنزل بالقطيع، وهناك لاحظتُ خروفاً ما يزال في الحظيرة! إنه الخروف الضائع، لم يخرج إلى المرعى منذ الصباح!

الحمد لله، كل شيء على ما يرام.

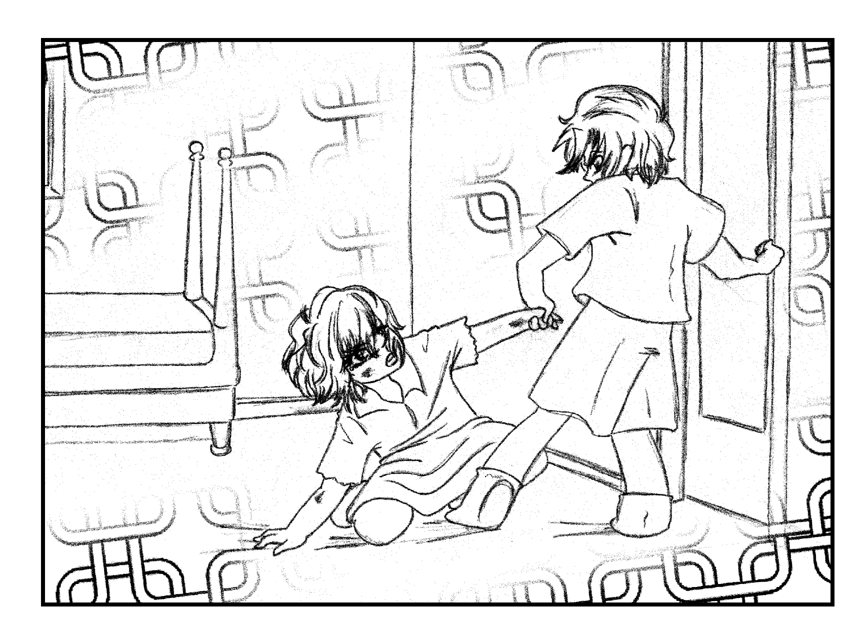
كل شيء على ما يرام! وهالة؟

ركضتُ إلى غرفة هالة، هذه المرة كانت تذرف دموعاً بغزارة، وتغطي وجهها بذراعيها.

اقتربتُ منها بسرعة أنظر إلى وجهها، هذه المرة كانت اللكمات قاسية جداً، وهناك آثار كدمات زرقاء في كل مكان! أمسكتُ يدها بحزم، وسحبتها من الفراش أقول: يجب أن يرى والدي ذلك.

قاومتني، ورفضتْ أن تنهض بأي شكل، سحبتُها بقوة من الفراش، وأرغمتها على الوصول إلى الباب، ولكن لدهشتي صرختْ تقول: كفى! والدي من فعل ذلك!

■ ■ ■



■ ■ ■

■ الفصل السادس | هالة

أحياناً كانت والدتي تعزز الخلاف بيننا، لا أعني بذلك الشجار، ولكنها لم تكن تعلمنا أن نكون متطابقين.

عندما جلب والدي كلب الحراسة إلى المنزل، كنا سعيدين به جداً، فقد كان كلباً لطيفاً وجميلاً.

كان لونه أشقر، وتميزه علامة بيضاء تقع على جسده من الناحية اليمنى.

قررت على الفور أن أطلق عليه اسم "ثلج"، حيث تشبه البقعة البيضاء الثلج على التراب، ولكن أخي أصرّ على أن يطلق عليه اسم "سحاب" حيث تشبه البقعة سحابة في السماء، ولكنني كنت مصرة أن السماء لونها أزرق، ولكنه لم يعجب باسم "ثلج" على الإطلاق!

كان خلافنا مضحكاً، ولكن والدتي تركت كلاً منا يطلق عليه الاسم الذي يحب.

اليوم استيقظتُ وقد قدّت شعري بعنف، وسقطتُ عن الفراش بقسوة.

صرختْ تطلب مني العمل، المسح، الغسيل، التكنيس، جلب الماء، حصاد الحقل، وطلبات أخرى لم أسمعها جيداً، ألم تيأس؟

لم أحرك ساكناً، فتابعتْ الضرب بقسوة، ولكنني نظـرتُ إليهـا بعيون عنيدة أتحدى إصرارها بصبر أيوبيّ.

أخـيراً قامـتْ بـسحبي مـن ثيـابي، وألقـتْ بـي خـارج المنـزل، وأغلقت الباب.

ليس مهماً، أي مكان لا تكون فيه خير، سرتُ في الحقل وتمددتُ تحت شجرة كبيرة أذكر أياماً جميلة قضيتها مع والدتي تحتها.

كم ركضتُ حول هذه الشجرة، كم غنّت لي أمي أغانٍ جميلـة مـا تزال ترن في أذني، كم كان صوتها جميلاً وحنوناً، لـيس كـصوت هـذه الـشمطاء! لـستُ أدري بم أُعجـب والـدي فيهـا! إنهـا لا تملـك أدنـى مقومات الأنوثة!

نهضتُ أتنهد، أعلم أنني أجادل نفسي عبثاً، إنها امرأة جميلـة، لا ينقصها شيء سوى الرحمة، ووالدي لا يعرف عن ذلك شيئاً.

هل أستطيع أن أتحدث إليه، هل أستطيع أن أستميله إلينا؟ هـل أحاول ذلك اليوم؟

حل المساء، بات الوقت متأخراً، علي العودة إلى المنـزل، فلـيس هناك من مكان أنام فيه في العراء.

فتحتُ باب المنزل فكان والدي في انتظـاري، سـأل علـى الفـور:

أين كنتِ؟

أجبتُ بصوت المعتذر: في الحقل.

نهض غاضباً: وماذا تفعلين في الحقل إلى هذه الساعة؟ أليس لديك بيت يؤويك؟ ألا تعلمين أننا نقلق عليك؟ زوجتي تحوم في المنزل قلقاً مما قد يحصل، لقد خرجتِ منذ الصباح، ماذا تظنين أنك فاعلة؟

جف ريقي، وضاعت كل الكلمات في صدري، إنها قلقة علي، لم تنم إلى الآن، وكنتُ أظن أنها استهلكتْ آخر حيلها.

اقترب والدي غاضباً، وأمسك يدي بقوة يقول: أجيبي! ماذا تريدين؟ أن تعود أمك إلى الحياة؟

صرختُ أقول: لا تذكر أمي! لقد نسيتَها!

فلكمني بقوة سقطتّ فيها على الأرض، ولم يعد يعي ما يفعل، عاود صفعي وضربي بشدة، لا أظنه يذكر أنني طفلة في عمر الثامنة!

ظل يضربني إلى أن حضرتْ زوجته تكمل المسرحية لتدافع عني، وتهدئ من روعه.

نهض والدي يقول آخر كلمة لتغرس في قلبي جرحاً لن يندمل إلى الأبد: أنت محظوظة لأنها دافعت عنك!

لقد انتصرَتْ.

■ الفصل السابع | أحمد

نامتْ هالة هذه الليلة على ذراعي، ولا أذكرها بكت بهذه الحرارة إلا يوم ماتت والدتنا.

منذ اللحظة بتنا وحدنا، أنا وهي، والظروف تحول بيننا وبين كل شيء.

ماذا عسانا نفعل؟ لم يمض الكثير من الوقت حتى أعلنتْ زوجة أبي سيطرتها الكلية على المنزل بما ومن فيه.

بينما كانت تستدرجني للخروج كانت تنفرد بهالة، بينما كنتُ أنعم بأنفاس الطبيعة بعيداً عن المشاكل كانت هالة تخوض المشاكل.

كيف لي أن أظل إلى جانبها؟ كيف لي أن أدافع عنها؟

طلع الفجر، إنه الوقت الذي أستيقظ فيه عادة لأخرج بالقطيع، عليّ النهوض وترك هالة وحيدة، كيف لي أن أفعل ذلك؟ وماذا سيحصل لها اليوم؟

لا أحب أن أتخيل انفرادهما معاً، ليس أمام هالة الآن من خيار، عليها أن تنفذ الأوامر.

نظرتُ إلى هالة تسند رأسها على ذراعي، وتتمتم في نومها: ماما...

قلبي يعتصر ألماً، أما من حل؟

أنزلتُ رأسها برفق على الفراش، واتجهتُ إلى غرفتي التي كانت منزوية عن المنزل، فقد بنى لي والدي تلك الغرفة عندما بلغت سن السابعة، وقد بات يعاملني كرجل.

دخلتُ الغرفة أفكر مليّاً فيما أفعل، كيف لي أن أظل هنا؟ كيف لي ألا أترك هالة؟

إما أن أبقى هنا أو أن تخرج هالة معي، ولا أظن في أي حال من الأحوال أن زوجة أبي ستفرج عن هالة بسهولة.

إذن علي أن أبقى، هل أرسل القطيع إلى مكان قريب وأعود؟ ربما يحل خطب بالخراف، لا أستطيع أن أجازف!

عليّ أن أبقى مع الخراف هنا، علي أن أقنع والدي بعدم خروجي.

خطر لي الحل الوحيد، أن أدّعي المرض، مجرد توعك وخمول لن يكفيا لإقناع أي أحد، علي أن أمرض بالفعل.

كيف لي أن أمرض الآن وحالاً؟

فكرتُ كثيراً، وبدأت الشمس تشرق، لم يتبق لدي وقت، علي أن أجد الحل بسرعة.

أجل... أتقيَأ، أجبر نفسي على تقيؤ ما أكلت، ولكنني لم آكل شيئاً منذ البارحة!

اتجهت إلى صالة الطعام، وبهدوء حملت بعض الخبز والقمح، وشيئاً من الفاكهة، أخذتها سريعاً إلى غرفتي.

أكلتها بسرعة، وبعد ربع ساعة وضعت إصبعي في أسفل حلقي أجبر نفسي على تقيؤ ما أكلت.

كان ذلك أصعب مما ظننت! وكان شعوراً سيئاً، بعد عدة محاولات تقيأتُ عصارة يختلط فيها ما أكلت، واتسخت أرض الغرفة بوضوح.

لم يمض الكثير من الوقت حتى انتبه والدي أن الخراف ما تزال في الحظيرة، وأنني ما أزال نائماً في غرفتي.

فتح باب الغرفة، فوجدني ألف نفسي في فراشي، وأرتجف من البرد، بينما تتنسخ أرض الغرفة بالقيء.

كان هذا كفيلاً لإقناع والدي، ولكنني لا أظن أن زوجته قد اقتنعتْ، لم يكن في يدها حيلة.

خرج والدي إلى عمله وتركني وهالة مع زوجته في المنزل، اليوم أنا وهالة معاً، وسنكون يداً واحدة.

دخلتْ غرفتي تقول: لقد انطلت حيلتك على والدك، ولكنك تعلم أنني لا أُخدع بهذه السهولة.

كشفتُ اللحاف عن وجهي، ونظرت إليها وقد أشارتْ إلي بالنهوض.

كانت تحمل دلواً كبيراً فارغاً في يدها، رفعتْه لأتناوله منها، وقالت: لقد انكسرتْ رافعة البئر، عليك أن تنزل إلى البئر لتعبئه بنفسك.

تساءلتُ: وكيف أنزل إلى البئر؟

سخرتْ مني وغادرتْ الغرفة تقول: هذا ليس شأني، أريد ماءً حتى نسقي الحقل، الذي ستقوم بسقايته بكل تأكيد، وهذا قبل فترة الظهر، لدينا عملٌ كثير اليوم.

إذا ما كنتُ سأجلب الماء وأسقي الحقل، وأنهي ذلك قبل الظهر لأعمل أعمالاً أخرى، وهالة طبعاً ستقوم بأعمال الغسيل والتنظيف، أستطيع أن أخمّن بسهولة أنها لن تعمل شيئاً على الإطلاق.

عليّ أن أرى هالة، هل هي على ما يرام؟

خرجتُ من غرفتي التي كانت تقودني إلى خارج المنزل، واتجهتُ إلى البوابة الرئيسية للمنزل لأطمئن على هالة، ولكن زوجة

أبي كانت تقف على المدخل، نظرتْ إلي بقسوة تقول: البئر ليس في المنزل، هل أنت عديم البديهة؟

قلتُ: أريد أن ألقي التحية على هالة.

ابتسمتْ ساخرة تقول: أخٌ حنون، لن أسمح لك بدخول المنزل قبل أن تستخرج ما يكفي لسقاية الحقول كاملة.

أستدرتُ مغادراً هذه المرة أتجه إلى البئر كالطفل المطيع، لا بل كالخادم الوضيع، لا بل كالعبد المقيّد، ما باليد حيلة، أرجو أن تكون هالة أفضل حالاً مني، ولكن ينتابني كل الشك في ذلك.

اتجهتُ حيث البئر، لا أذكر أن رافعته قد انقطعت منذ سنين، ولكنها الآن في حالة يصعب إصلاحها.

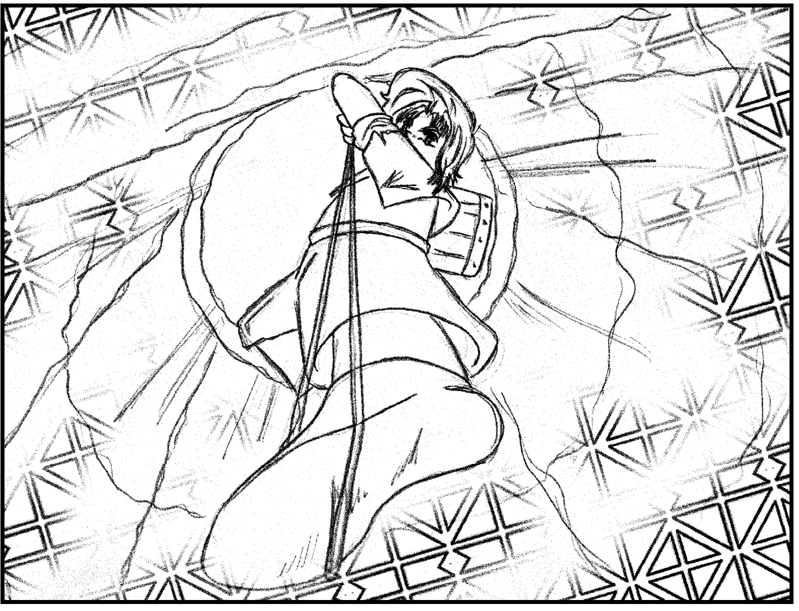
نظرتُ في البئر، الظلام حالك في الأسفل، إلى درجة لا أستطيع فيها تحديد قعره، كيف لي أن أنزل؟

نظرتُ حولي، ما من وسيلة أنزل بها البئر، كما أنني وحدي دون مساعد!

كان الأسلوب الوحيد هو التعلق بحبل، لطالما لعبت بالحبال واستخدمتها للتسلق، ولكنني لم أجرب في حياتي النزول في بئر بدلو في يد، والوصول إلى القاع، وتجميع الماء في الدلو، والتسلق صعوداً بدلو مملوء!

اتجهتُ إلى الحظيرة، ووجدتُ حبلاً متيناً هناك، على الأقل أضمن ألا ينقطع الحبل أثناء العمل.

عدتُ إلى حيث البئر، وقمتُ بربط الحبل حول شجرة عريضة، وشددتُ الوثاق، وضعتُ الدلو حول كتفي، ولففتُ قدمي بالحبل بأسلوب تعلمته من والدي أثناء اللعب، وبدأتُ أنزل نفسي في البئر ببطء.



كان الظلام أحلك مما ظننتُ، لم أعد أستطيع رؤية قدمي، والضوء الوحيد كان يعلوني بأمتار، هل أصعد؟ هل أستطيع أن أنزل أكثر؟ هل أستطيع القيام بهذا العمل؟ هل أجبر نفسي على القيام به؟

وماذا إذا ما حل بـي مكـروه؟ لربمـا ادّعـتْ أنـني كنـتُ ألعـب، وأنني لقيتُ جزاء استهتاري، من يدري؟

ماذا إذا ما سقطتُ هنا، ولم يعثر أحدهم علي، ولم تخـبر أحـداً خبر البئر ومن فيه؟

لربما تكون أسعد إذا ما متّ؟ هل هي سيئة إلى هذه الدرجة؟

هززتُ رأسي، ما الفائـدة مـن ذلـك الآن؟ إذا مـا صـعدتُ فإنهـا سوف تجبرني على القيام بذلك، عليّ أن أقوم به كرجل.

قررتُ أن أتابع، نزلتُ إلى أسفل، وأسفل، وأسفل، لا أدري أيـن أنا، لا أدري كم من المسافة قطعت.

ها هي، مياه باردة تداعب قدمي، لقد وصلت!

أسرعتُ بإنزال الدلو، ملأته بالمياه، أظن أنه امـتلأ عـن آخـره، فقد زاد وزنه بشكل كبير.

الآن كيف لي أن أصعد؟ الدلو ثقيل، وعلي أن أتسلق.

وضعتُ قدمي على جدار البئر، والقـدم الثانيـة ألفهـا بالحبـل، وضعت الدلو حول كتفي، وقبضت على الحبل بقوة.

استغرق الصعود مني وقتاً طويلاً، حيث كل خطوة كانت أصـعب من سابقتها، وانتابني إرهاق شديد.

كانت اللحظة التي سقطتْ فيها أشعة الشمس على شعري من أجمل اللحظات، إنه شعور لا يوصف، إنني في الأعلى، أخرج من البئر.

وضعتُ الدلو على الأرض، ورفعتُ نفسي أضع قدمي على التراب سالماً، كان ذلك أصعب مما تخيلتُ، وفوق ذلك اكتشفتُ أن الدلو لم يكن معبئاً بالكامل، ربما لم أعبئه كاملاً منذ البداية أو أن جزءاً منه انسكب أثناء انهماكي في عملية الصعود.

كم مرة عليّ أن أعاود ذلك، إن قلبي يخفق بشدة، والعرق يتصبب مني، ناهيك عن الخوف الذي ينتابني لأفكر بالنزول ثانية.

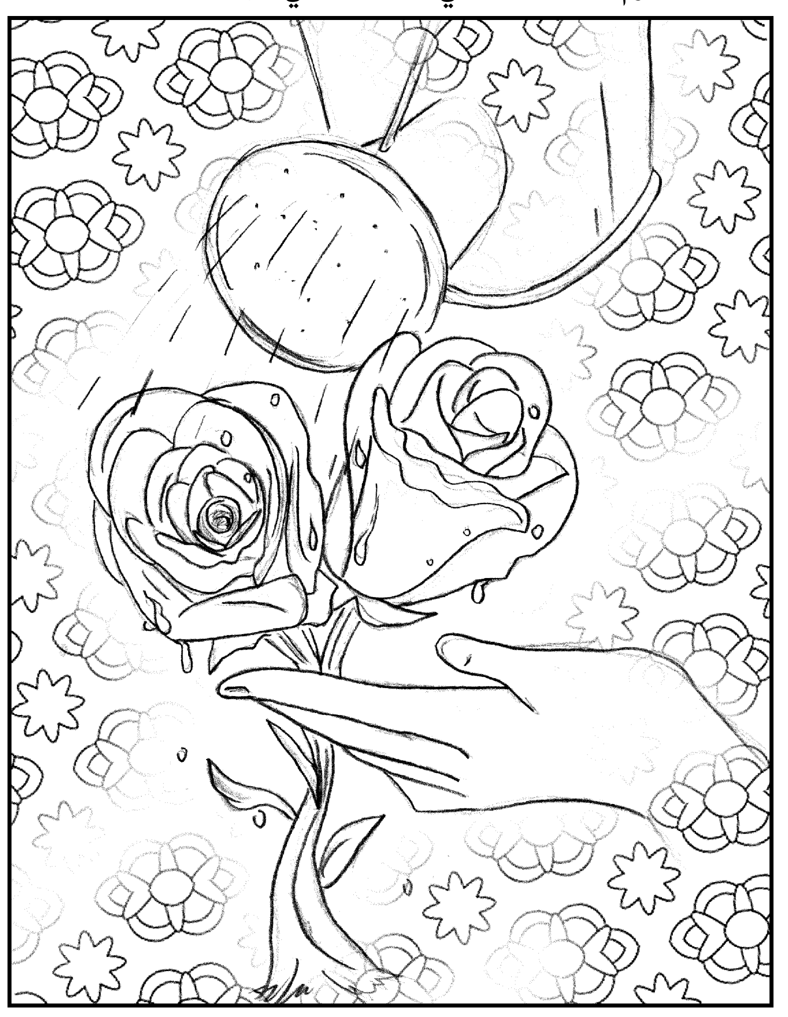
عليّ أن أستخرج ما يكفي لسقاية الحقل اليوم، لا أدري كم علي أن أخرج، كما أنني لا أجيد الحساب لأقدّر كم مرة علي النزول في البئر.

كل ما أعرفه الآن أن دلواً واحداً شبه ممتلئ لن يكفي لسقاية الحقل، وعلي الآن النزول ثانية.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن | هالة

كانت والدتي تزرع أزهاراً حول النوافذ في المنزل، وكنت أستيقظ كل يوم لأشاهدها تسقي أزهار غرفتي، وتدندن بأغنية لطيفة.



وعلى خلاف ذلك أستيقظ اليوم، صراخ، قذفتْ بغطـائي بعيـداً، وسحبتني من شعري لأقف على الفور أستمع لأوامرها اليوم.

اليوم هو اليوم الأول لي في العمل الرسمي، علـيّ أن أعمـل، لقـد خضعتُ أخيراً.

ما الذي يتوجـب علـي فعلـه؟ المـسح؟ الغـسيل؟ النـشر؟ ذكـرتْ الكثير من الأعمال، بعضها لا أذكره، وبعضها لا أعرف معناه!

بالتدريج سأبدأ، ولن أجهد نفسي في العمل قدر المـستطاع، علـيّ أن أكون بليدة ما أمكن.

بدأتُ العمل في مسح أرضية المنزل، وكانت تراقبني هنا وهناك، ولم تتعب نفسها في أي عمل، فقط كانـت تنتقـد مـا أفعـل، وتـوجهني لأعاود المسح مرتين أو ثلاث في كل بقعة.

ها أنا هنا أواجه القذائف مباشرة، بينمـا يـنعم أخـي في رحلـة جميلة في البراري مع القطيع، ألا نستطيع تبادل الأدوار؟

ليتني كنتُ الآن تحـت الأشـجار مـع ثلـج، ليـتني كنـتُ أغـني للخراف وأمرح معهم، ليتني نجوتُ من رؤيتها كل دقيقة.

أنهيتُ المسح، ماذا بعد؟ الغسيل... جمّعت كومة من الثياب وكأننا عشرة أنفار في المنزل، ووضعتها في حوض صغير داخل المنزل لأفركها.

ثياب من هذه؟ لم يكن من بينها ثوب واحد لي أو لأحمد! هذه نصف ثياب أبي على ما أظن، وثياب لها، تبدو جميعها جديدة ونظيفة!

بدأتُ أفرك بالصابون، كانت هذه المرة الأولى في حياتي، ولستُ أدري إذا ما كنتُ أحسن العمل أم لا.

فركتُ الثياب الواحد تلو الآخر، وبعد برهة عادتْ لتنظر في الغسيل، رفعتْ قطعة واحدة كانت نظيفة في الأساس، وألقتها في الحوض ثانية بقسوة تقول: ما هذه القذارة؟ أنت لا تحسنين أي عمل! تابعي.

عاودتُ الفرك، وما إن غابت عن ناظري حتى بدأتُ فقط أحرك في المياه، لا جدوى من العمل، فهي لن تكون سعيدة بأي نتيجة، فلماذا أتعب نفسي.

أثناء تقليبي لاحظتُ قطعة أعرفها جيداً، رفعتُها من الماء بسرعة، إنه لحاف كانت ترتديه والدتي! لماذا هو بين غسيلها؟ بل أين باتت ثياب والدتي؟

كيف لي أن أعرف؟ لا أستطيع أن أسألها، لابد أنها تخلصتْ منها، ولكن الشال قد نال إعجابها فاحتفظت به لنفسها.

لماذا لم تعطني ثيابها؟ لماذا لم يفعل والدي ذلك؟

دخلتْ الغرفة وأنا ممسكة بالشال، فقالت: إنه مناسب لمسح الأطباق بعد الغسيل، هيّا اشطفي الثياب بالماء، ستقومين بنشرها في الخارج.

فعلتُ ما طلبت، من الجيد أن أخرج من المنزل قليلاً لأشم الهواء العليل كما يفعل أحمد.

حملتُ السلّة الثقيلة، واتجهتُ نحو الأسلاك التي كنّا نربطها بالأشجار لأعلّق الثياب عليها.

كنت وحدي، أستمتع بأشعة الشمس النقية تسقط على وجنتي، فبدأتُ أتذكر الأغاني التي كانت تغنيها لي والدتي، بدأتُ أتمتم بها، وأنشر الثياب برويّة، إنني وحدي، هذا بات أقصى ما أتمنى.

أثناء عملي، نظرتُ إلى البئر القديم، كان يبعد عني مسافة لا تقل عن المئة متر، هناك دلو أمامه، بل ثلاثة! وهناك حبل يلتف حول شجرة كبيرة، وينزل في البئر!

ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ حبل في البئر!

تابعتُ عملي أتجاهل ما رأيت، ثم خطر لي أنه ربما لص يحاول سرقة المياه، فتركتُ عملي واتجهتُ بهدوء إلى البئر.

كان الحبل مشدوداً على الشجرة، يبدو أنه يحمل شيئاً ثقيلاً في الأسفل، اتجهتُ إلى البئر أختلس النظر فيه، من هناك؟

هناك شخص في الأسفل، ولكنني لا أستطيع تمييز من يكون، من الذي ينزل في بئر مظلم وموحش؟

أحسستُ بحركة غريبة إلى جانبي، إنه الحبل، بدأ بالتمزق! لا أظنه يحمل أحداً مدة طويلة.

نظرتُ في البئر، كائناً من يكون فعليه الخروج وإلا سقط في البئر العميق.

ناديتُ: أنت هناك! أسرع بالصعود، فالحبل يهترئ!

سمعتُ صوته يجيبني: هالة! أنت هنا؟

إنه أحمد! أليس من المفترض أن يكون مع القطيع يستمتع في الغابة! يا إلهي، إنه يكاد يسقط!

صرختُ سريعاً: أحمد! الحبل لن يصمد أكثر، هيا اصعد!

كان أحمد يصعد، ولكنه مهما حاول لم يكن صعوده سريعاً، والمشكلة أنه كلما أسرع ازداد حال الحبل سوءاً.

هذا لن يجدي نفعاً، بات الحبل في وضع سيء، سينقطع في أية لحظة! حاولت التفكير في شيء يخفف عن الحبل، فلم يسعفني عقلي

لحل سوى الإمساك بالحبل ومساعدته في رفع أحمد.

أمسكتُ الحبل بكل ما أوتيتُ من قوّة، ومع ذلك كان الحبل يتآكل بسرعة، شددته أكثر، أحمد كان أثقل مما ظننت!

هي ثوانٍ كان على أحمد أن يصل فيها إلى فتحة البئر وإلا انقطع الحبل، وأخيراً ظهر أحمد، ووضع الدلو المليء بالماء على الأرض، وتمسك بحافة البئر ورفع جسده، فتركتُ الحبل وركضتُ إليه.

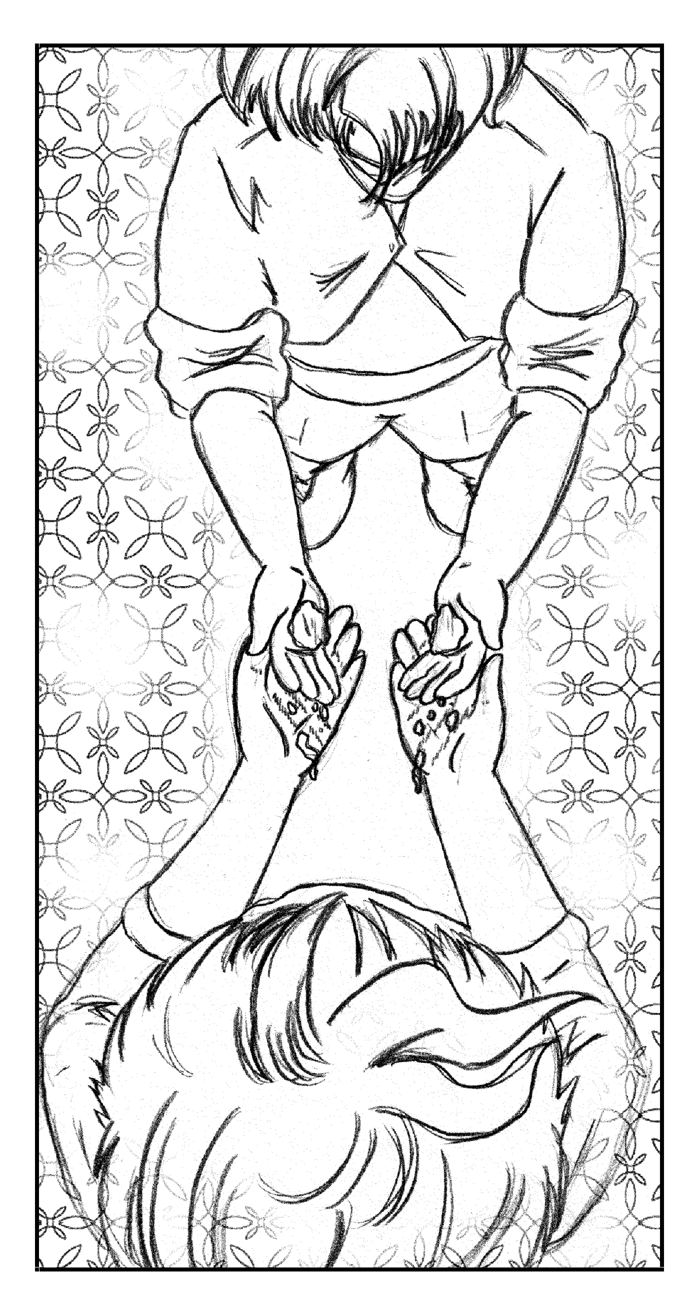
ماذا تفعل هنا؟ ما هذا العمل الخطير الذي تقوم به؟ هذا البئر عميق جداً!

ولكنه لم يكن يسمع ما أقول، نظر إلى يدي وأمسك بهما، لقد آذاهما الحبل كثيراً، وبدأتْ بعض الجروح تدمي.

أخذ يحمل مياه من الدلو بين يديه، يسكبها على يدي.

كانت مؤلمة وحنونة في الوقت نفسه، كرر ذلك عدّة مرّات إلى أن مسح الدماء عنها، عندها سمعتُ صوتاً يقترب مسرعاً منّا، التفتّ فإذا بها زوجة أبي، تبعد الدلو عن أحمد وتقول: لا تهدر الماء بلا فائدة!

■ ■ ■



■ الفصل التاسع | أحمد

كانت تشد الحبل إلى أن تأثرتْ يدها، تلك اليد الـتي لم تعـرف سوى اللعب والرسم والصوابين، أذكر كم كانت ناعمة، لقـد تغـيرت في غضون يوم واحد، ماذا سيحصل بعد لها؟

أخذتْ زوجة والدي الدلو لتثنيني عن العناية بهـاتين اليـدين، من دون ماء ماذا أفعل لها؟

نظرتْ هالة إليّ نظرة مختلفة، فيها شيء من الهدوء والرضـا لم ألحظه من قبل، وقالتْ: ظننتك في الحقل مع الخراف.

أجبتُ: لم أستطع أن أغادر وأتركك وحدك.

ابتسمتْ ابتسامة خفيفة، تتجنب النظر إلى عيني، فقلـتُ لهـا: لن أتركك أبداً.

نظرتْ إلي وقالتْ: أتعدني؟

أكّدتُ: أعدك.

هذا وعد أقطعه لك، والله وحـده شـاهد علينـا، والـزمن سـيثبت صدق ما أقول، لن أنكث العهد حتى لو كلّفني ذلك حياتي.

لم أستطع سقاية الحقول كلـها، بـل لم أسـتطع سـقاية ربعهـا، فعاد والدي غاضباً، عليّ أن أكون رجلاً يتحمل المسؤولية، لماذا لم أسـقِ

الحقول كاملة؟ ولماذا كسرتُ رافعة البئر؟ ولماذا أنزل باستهتار إلى البئر العميق لأنزل الدلو، لماذا لم ألقِ بالدلو وأسحبه بالحبل إلى أعلى؟ ولماذا أخرجتُ عدداً كبيراً من الدلاء من المخزن بدل استخدام حوض السقاية...؟

لماذا لم أُنه العمل؟

لأنني لم أستطع.

لماذا كسرتُ الرافعة؟

لأن زوجتك كذبت عليك في ذلك.

لماذا أنزل إلى البئر؟

لأنني خفت أن يسقط الدلو فيضيع، لأنني أعلم أنه أثمن مني الآن.

لماذا أخرجتُ دلاء المخزن؟

لأنني لا أعرف حوض السقاية.

هذه كانت الإجابات الفعلية للأسئلة، ولكن إجابتي الوحيدة عن تساؤلات والدي الغاضب كانت: أنا آسف.

حل الليل، وتأخرت الساعة، من المفترض أن تكون هالة قد أنهت العمل وعادت إلى حجرتها.

تسللتُ إلى المنزل، وطرقتُ باب غرفتها، ففتحتْ لي وقد

ابتهجتْ لرؤيتي، وأدخلتني سريعاً.

ها نحن معاً بعيداً عن المشاكل قدر الإمكان.

جلستُ على الأرض وركزتُ ظهري على الحائط بينما جلستْ على الفراش كأميرة حزينة، انقلبتْ الدنيا بها دون سابق إنذار.

كسرتِ الصمت بسرعة وقالتْ: لماذا تزوج والدي؟

لطفلين في عمر الثامنة لم يكن هناك جواب مقنع، ولم يكن هناك مبرر لما يفعله الوالد، ولم يكن هناك أي داع لامرأة شرسة في المنزل.

ما المشكلة إذا ما بقينا دون امرأة؟ أيخشى أن نظل وحدنا عند غيابه في العمل؟ ألا يخشى علينا منها عند غيابه؟

قالتْ: أريد أمي!

أحسستُ بالدموع تتجمع في عينيها، أردتُ أن أقول "وأنا أيضاً فقدت أمي! وأنا أيضاً أريد أن أبكي! أنا هنا في الظروف نفسها، في المشكلة نفسها، في العائلة نفسها! لِم لا تدركين ذلك؟"

ولكنني لم أفعل، فالفارق الوحيد بيننا أنني الرجل هنا، رجل في الثامنة من العمر، رجل لم يتجاوز المتر وبضع سنتيمترات، رجل لا يحسن القراءة والكتابة جيداً، رجل لا يعرف أين يرعى أغنامه، رجل لا يخطط لغده القادم، رغم كل ذلك، رجل...

■ الفصل العاشر | هالة

عندما يعبث أحمد بألعابي، كانت أمي تحاول تـسوية الأمـور، لماذا لم تكن تقف إلى جانبي؟ لماذا كانت تبحث دائماً عن حـل؟ لمـاذا لم تكن توبخه أمامي؟

لأنها أمه أيضاً.

إجابة لم تخطر على بالي حينهـا، ولكنهـا خطـرت لـي عنـدما بدأتُ أذرف دموعي، أقول له أنني أريد أمي، وقـد نـسيتُ أنـني أوقـد فيه شوقاً لرؤيتها.

لم أره يذرف الدموع حزناً على والدتي، ولكن هذا لا يعني أنني لا أحس بالغصة في حلقه كلما ذكرتُها.

إنه يحبها، ويشتاق لها، لأنها لم تكـن توبخـه أمـامي، لأنهـا كانت دائمـاً تبحـث عـن حـل يناسـب كلينـا، لأنهـا لم تكـن تقـف إلى جانبي تاركة جانبه، لقد كانت أمّه أيضاً.

ولكـنني لا أسـتطيع حـبس دمـوعي، أنـا آسـفة، إذا لم أبـكِ إلى جوارك فإلى جوار من أبكي؟

تركتَني أبكي، لعـلّ ذلـك يخفـف آلامـي، لعـلّ ذلـك يعـزّيني، ولكنه لن يحلّ شيئاً.

هذا كان الخلاف بيننا، فبينما تهيج أحاسيسي كل يوم، كنتَ تحبسها وتفكر فيم ستفعل.

لم تكن خياراتنا كثيرة، وأنا أكيدة أن التفكير في أمرنا هو من المهام الصعبة التي كلّفتَ نفسك بها، وقد تركتُها لك.

نهضتَ تقول: عليّ أن أذهب إلى غرفتي، لا يجب أن تحس أنني هنا.

قلتُ: وما المشكلة في ذلك؟

ابتسمتَ وقلتَ: لطالما طردْتّني من هذه الغرفة.

بلعتُ ريقي، وجفت كل الكلمات في حلقي، ولكنك ضحكت قائلاً: أعلم أنكِ لم تقصدي ذلك حينها، لقد كنتُ فظّاً.

لم تترك لي مجالاً لقول أي شيء، فتحتَ الباب، واختلستَ النظر في الصالة، كان الهدوء مطمئناً، فأشرتَ إليّ أنك مغادر، وأغلقتَ الباب من خلفك.

لا أريد أن أظل وحيدة.

خبأتُ رأسي تحت الفراش لأنام بسرعة، ولكن دموعي كانت الأسرع.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي عشر | أحمد

كان عليّ أن أرعى القطيع اليوم، فعليّ أن أحافظ على حيلي للبقاء في المنزل من الاهتراء.

خرجتُ بالقطيع، هذه المرة أقوده إلى حيث أشاء، آمره أن يتبعني، وأقود سحاباً معي حيثما أشاء.

لم تكن وجهتي عشوائية، بل كنتُ أعرف تماماً ما أريد، أريد الحاجّ غانم.

كان منزل الحاج غانم الأقرب إلى منزلنا، أعني بذلك أنه يبعد عنّا مسافة ثلاثة كيلومترات، تتطلبني المسافة ساعة من السير على الأقدام، نصف ساعة على العربة، خمس دقائق بالسيارة، أما مع قطيع كهذا، فقد استغرقتني المسافة أربع ساعات.

وصلتُ إلى المنزل، إنه مبني من الخشب والقش، منزل أبسط وأقدم من منزلنا، بارد في الشتاء وحار في الصيف، كيف لشيخ كبير أن يتحمل؟

منزله مكوّن من صالة صغيرة، تحوي معظم حاجيات الحج، وغرفة مجاورة لطهو الطعام، أما الحمّام فقد كان في الخارج، في حجرة صغيرة تبعد أمتاراً قليلة عن المنزل.

أما الحاجّ غانم فقد كان قد تجاوز التسعين، تساقطت كل شعرة

من رأسه، كما تساقطت جميع أسنانه، على وجنتيه حبوب سوداء لتقدمه في السن، وتجاعيد ترسم تاريخ شقاء مضى.

كان دائم الارتكاز على عكازه القديم، لم أره يتركها من يده لحظة، لعلّه يخشى أن يفقدها فلا يجدها لضعف بصره.

كما كان ظهره مقوساً، وقامته هزيلة، ونظّارته سميكة.

فقد زوجته منذ عشرين عاماً، وله سبعة أولاد، خمسة شباب وابنتان، يسكنون المدينة، ويبعثون له بالأرز والسكر بين الحين والآخر، ولكنني لم ألتق أحدهم. أظن أنهم لا يترددون عليه كثيراً.

كل ذلك، وما كانت الابتسامة تفارق وجهه، كان دائماً يحب استقبالنا، والتربيت على شعرنا، وإجلاسنا في حضنه، كما كانت والدتي ترسل له معنا جزءاً من الطعام الذي تطهوه كل مرة.

ولن أنسى ذكر صوته العذب في تلاوة القرآن، فهو يقضي معظم وقته في الترتيل، يبحر في صفحات المصحف، ويغوص في كل كلمة، لطالما كشف لنا أسراراً كنا نجهلها في كتابنا العظيم.

كان بمثابة الجد لنا، نزوره لنتحدث إليه بين الحين والآخر، ونشتاق إليه إذا ما طال الغياب.

أما الآن، فهو بالنسبة إلينا ما تبقى من العائلة، المنزل الذي

نستطيع التجول فيه بحرية، الباحة التي نلعب فيها، الابتسامة، والسعادة.

وقفت أمام الباب، طرقتُ بخفة، فقد كان يحس بأي حركة غريبة حول المنزل، فتح الباب ورأيتُ الابتسامة العريضة على وجنته برؤيتي، ابتسامة طال غيابها، ابتسامة نسيتُ كيف ترتسم على الوجوه، ابتسامة تنقل عدوى الابتسام، فقد ابتسمتُ لرؤيته كذلك، واقتربتُ منه لأعانقه ويربت على رأسي.

أدخلني منزله المتواضع، وعرض عليّ كل باب للمساعدة، ولكنني أعلم أنه محتاج للعناية أكثر منا، حتى بفقدان والدتنا، فقد فقد والدته أيضاً منذ سنين، وفوق ذلك فقد أولاده.

عزّاني في والدتي، ولن أنسى أنه تكلّف عناء الحضور إلى الجنازة رغم صعوبة ذلك عليه، وما زلتُ أجهل الطريقة التي استخدمها لقطع تلك المسافة الكبيرة.

ثم سألني عن هالة، فبدأتُ أشرح له ما تعاني، تكلمتُ كثيراً، وانفعلتُ بعض الشيء، وقد أصغى بكل اهتمام، ورقّ قلبه علينا أكثر من السابق، ولكنه قال: وماذا عنك؟

ماذا عنّي؟

قال: إنك تتحدث عن ما تعانيه هالة، ولكن ماذا عنك أنت؟

نظرتُ في الخارج، وقد بدأت الشمس تقارب المغيب، قلتُ: أستطيع تدبر أمري، ولكن هالة تفكر في والدتنا كل يوم.

هزّ الحاجّ رأسه، فتساءلتُ: ماذا تعني بسؤالك؟

عندها أجاب: لقد عشتُ من العمر طويلاً، ولكن عليّ أن أقول أنني لم أشعر بالفخر بالوقوف أمام شخص كما أقف أمامك الآن.

لم أفهم ما يعني، كان كلاماً كبيراً، شيء مما يدور في رأسه من السنين، ولكنه لم يعقّب، جلب لي الحليب الطازج الذي حلبه من بقرته اليوم، وقد كانت بقرته الوحيدة، متقدمة في السن، وتدور حرة في الحقل لا تقوى على قطع مسافات طويلة.

شربتُ الحليب ثم نهضتُ لأغادر، فعليّ أن أكون في المنزل قبل المساء.

وقفتُ على باب المنزل أنظر إلى الحجّ غانم، قلتُ: ليت هالة تستطيع زيارتك لتسعد بلقائك.

ابتسم الحاجّ غانم وقال: مرحباً بها في أي وقت.

ألم يفهم الحاجّ غانم بعد أن هالة باتت محتجزة في جحيم المنزل، يستحيل عليها المغادرة، فكيف لي أن أجلبها معي؟

■ الفصل الثاني عشر | هالة

كانت والدتي تعمل بجد في الحقل، تزرع وتحصد، وتسقي الحقل كل يوم، كما لم تقصر يوماً في تنظيف المنزل، وتحضير الطعام.

اليوم أعلم كم تعبتْ أمي، اليوم أتمنى لو كنت أساعدها في بعض الأعمال، اليوم أعلم كم كنت مدللة، اليوم أندم أنني أجهد نفسي في العمل لقاء لا شيء، اليوم أعمل رغماً عني، ليتني عملتُ برضاي ورضاكِ.

استيقظت والدموع على وجنتي، لم يوقظني أحد، بل نهضتُ من الفراش في الصباح الباكر، رتبت فراشي الذي كان آخر ما أرتبه في اليوم العادي، سرّحت شعري، وجلست أنظر في المرآة.

هذه أنا اليوم، يتيمة، متعبة، مظلومة، بائسة، هذه أنا اليوم، في حرب أخسر فيها كل يوم، ها أنا اليوم، أسعد بانتهاء اليوم الذي أعلم أن تاليه ليس بأفضل منه.

سمعتُ الباب الخارجي يطبق، لقد خرج والدي إلى المدينة، ولابد أن أحمد قد خرج بالقطيع، الآن بدأ يومي.

فتحتِ الباب بعنف ودون سابق إنذار، انقطعتْ سلسلة صرخاتها عندما رأتني أقف مستيقظة في الغرفة، استدركتْ نفسها

وقالتْ: لـدينا عمـل كـثير اليـوم، هيّـا أسـرعي واجلـبي الحبـوب مـن المخزن.

لدينا! أنا من يعمل طول اليوم، ولكن ماذا تفعل هي؟ ليس لـدي الوقت الكافي لأراقب ما تقوم به!

خرجتُ إلى المخزن وجلبتُ الحبـوب، طلبـتْ إلـيّ أن أنثرهـا في الحقل، ولم يكن لدي خبرة في هذه الأمور، عليّ أن أجرّب.

نثرتُ الحبوب بشكل عشوائي، لم يكن ذلك صعباً، ولم يستغرق وقتاً، وعندما عدتُ إلى المنزل، أنّبتني بشدّة علـى جهلـي في الزراعـة، وذكـرتْ أشـياء عـن الكـسل والخمـول والغبـاء، والاسـتهتار وحتـى القباحة، تغاضيتُ عن كل ما سمعـت، فمـاذا كنـتُ أتوقـع غـير ذلـك، ولكن أن تذكر أمي، هذا ما لا أستطيع تجاهله.

قالتْ فيما قالتْ: طبعاً، بنتٌ مثلك كان لابد أن لها أماً تافهـة، لا تجيد التربية...

هي لحظات وكانت أسناني تعض ذراعها، وتغرس فيها كأنياب كلب ضال ينهش طريدته، ولا ينوي الإفلات منها.

نزفتْ يدها بشدة، وصرختْ بقوة تستنجد، ولكن لم يكن هنـاك مـن أحـد في المنـزل، قـذفتْ بـي علـى الأرض، فـارتطم رأسـي بقـوة،

وركضتْ بسرعة إلى حوض المياه تغسل ذراعها.

ما كنتُ لأسكت، ما كنتُ لأتركها تذكر والدتي على لسانها المسموم، وما كنتُ لأفعل غير ما فعلتُ حتى عندما عوقبت بعودة والدي.

تفحص والدي أثر أسناني على ذراع زوجته العزيزة، فاشتاط غضباً، وحبسني في قبو صغير نخزن فيه الأرز والسكر، لا تتجاوز مساحته المترين، كما تنعدم فيه الإنارة والمنافذ.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث عشر | أحمد

عدتُ إلى المنزل في المساء، حمدتُ الله أن عدد القطيع كان كاملاً رغم حلول الليل، وأعدتُ سحاباً إلى منزله الخشبي.

كان عليّ أن أطمئن على هالة، فقد قضتْ يومها وحيدة، كلا... ليتها كانت وحيدة، فقد كانت مع الأفعى.

طرقتُ باب المنزل، كان والدي يتناول العشاء معها، ألقيتُ التحية عليهما بكل تهذيب، ثم اتجهتُ إلى باب حجرة هالة.

طرقتُ الباب فلم تُجبْ، فتحته برفق خشية أن تكون نائمة، أو في أسوأ الأحوال تبكي، ولكنها لم تكن هناك!

تجولتُ قليلاً في المنزل، أبحث عنها هنا وهناك، ولكنني لم أجدها!

خرجتُ إلى الخارج، بحثتُ قرب غرفتي، بحثتُ في الحظيرة، تجوّلتُ قرابة المنزل، ليس من أثر لها!

عدتُ إلى المنزل إلى آخر خيار لي، أن أسأل والدي أين هي ابنته، رغم أنه قد رآني أبحث عنها إلا أنه لم يجب إلا عندما سألتُه، وكان جوابه جافّاً: لقد حبستها الليلة لأنها تستحق العقاب.

عقاب! ماذا فعلتْ؟

رفعتْ زوجة أبي الثياب عن ذراعها، لأرى بوضوح علامات الأسنان طُبعتْ بشكل واضح عليها، هل فعلتْ هالة ذلك؟

قالتْ زوجة أبي: إنها متوحشة!

قلتُ من فوري: ماذا فعلتِ لتردّ هذا الرد؟

عندها قام والدي منزعجاً مما قلتُ، نسيتُ لوهلة أنه إلى صفّها، نسيتُ لوهلة أنه لا يدري ما يجري، نسيتُ لوهلة أننا بفقدان والدتي فقدنا والدي.

اتجهتُ إلى القبو الصغير المظلم، لطالما كنّا نظن أن الأشباح تسكن فيه، أن أرواحاً تحوم هناك، أن أصواتاً تصدر عنه في المساء، كيف لهالة أن تجلس فيه وحدها.

رفعتُ الخشب الذي يقفل القبو، ورفعتُ الغطاء لأرى هالة تتحاشى الضوء الساطع، فقد اعتادتْ عيناها الظلام الدامس.

هي لحظة وكانت يد والدي تمسك بمؤخرة قميصي، وقد كان ضخم الجثة، فسهل عليه رفعي عن الأرضية وإلقائي بعيداً دون أدنى مشقة.

أغلق والدي غطاء القبو على هالة دون أن ينطق بأية كلمة، فنهضتُ وقلتُ: سيكون القبو بارداً الليلة.

فردّ أبي بتجهّم: وإلا كيف يكون عقاباً؟

يئستُ بسرعة من رحمة والدي، فقفزتُ بسرعة أقول: احبسني بدلاً منها.

فقالتِ الأفعى: ولِمَ يفعل؟

أجبتُ: أنتِ تريدين انصافاً لما فُعل بكِ، أنا وهالة توأم واحد، لا فرق بيننا.

ابتسمتْ ابتسامة خبيثة بينما ضحك والدي، قال: أتمنى أن أراك رجلاً في رعاية القطيع وزراعة الحقول كما تصبح رجلاً في رعاية هالة.

وما المشكلة في ذلك؟ ولِمَ العجبُ في دفاعي عن أختي؟ ألم تربني والدتي على ذلك؟ ألم تكن تربينا على ذلك أيضاً في حضور والدتي؟ وماذا عن اليوم...

لم أنطق بتلك الكلمات، فما الفائدة أن يكون كلانا في القصاص، أشار والدي بيده إليّ لأعود إلى غرفتي، فغداً هناك عمل منذ الصباح.

كان عليّ أن أصغي لكلامه، وأعود إلى غرفتي، ولكنني بكل تأكيد لن أترك الليلة تمر كما الليالي السابقات، عليّ أن أغادر غرفتي فور سكون المنزل.

مرت ساعة ظننت فيها أنهما قد خلدا للفراش، دخلتُ المنزل بكل هدوء، واتجهت إلى القبو، فكان قد أُقفل بقفل محكم، لابد أنها كانت تحسب حساباً لعودتي مسبقاً.

طرقتُ طرقاتٍ خفيفة لتسمعها هالة، فسمعتُ صوتها يرتجف وهي تقول: أحمد! الجو بارد هنا!

سألتها: هل من ضوء يصل إليك؟

أجابتْ: لا، الظلام حالك.

سكتتْ قليلاً ثم قالتْ: أحمد، أتذكر أشباح القبو؟ تلك الأرواح التي كنّا نتخيل أنها تخرج من هنا؟

كنتُ ما زلتُ أخشى القبو، وأتذكر جيداً كل الخيالات التي كنّا نرسمها حوله، وكي أصدُق القول فإنني ما زلتُ أؤمن بتلك الخيالات.

كان عليّ أن أجيب، وكان عليّ أن أشجعها، لكن هالة لم تترك لي المجال، فقالتْ: ليس هناك شيء من هذا القبيل هنا!

صمتّ، فتابعتْ: وهل تذكر الأصوات التي كنّا نسمعها؟

تابعتْ دون انتظار أي تعليق مني: إنها أصوات الأرز في الأكياس.

بقيتُ أنصتُ لما تقول، رغم أن صوتها كان يرجف من البرد،

أظنها كانتْ ترجف أيضاً مما تقول، فقد كانت تشجع نفسها، وتزرع الأفكار الإيجابية بكل قوة، أختي قويّة.

ابتسمتُ وقلتُ: إذن فقد خدعنا أنفسنا، وصدّقنا حكاياتنا فانقلبت علينا.

سمعتُ ضحكتها وهي تقول: انقلبتْ إلى أن نزلتَ البئر ونزلتُ القبو.

ضحكنا رغماً عنا على الأسى الذي نعانيه، فلم يعد لدينا سوى الابتسام حراً طليقاً.

قلتُ: إذا ما كنتِ جائعة، فهناك الكثير لتأكليه.

قالتْ: هل تعلم أن هناك الكثير في الأسفل، أرز وسكر وقمح، لم أعلم أن لدينا الكثير، لِمَ نحصد إذن؟

أجبتُ: هذا ما تبقى من حصاد العام الماضي، نحن نحصد الآن لتجدي القمح هنا في العام المقبل.

قالتْ: عندما أحبسُ في القبو ثانية؟

قلتُ: لنرجو ألا يحدث ذلك.

قالتْ: هل ستظل هنا إلى العام القادم؟

لستُ أدري ما أقول، أين لها أن تذهب؟ أن يطلّقها والدي، إنه

مغرم بها! أن تموت، إنها في صحة جيدة! أن نقتلها، لن نجـرؤ علـى فعل ذلك!

ولكنّ هالة قالتْ وكأنها تفكر فيما أفكر: هي لـن تـذهب، ربمـا نحن.

فكّـرتُ، طفـلان في عمـر الثامنـة، في العـام القـادم يـصبحان في التاسعة، أين لهما أن يذهبا؟ أن يهربا، أين المفر؟ أن يُـنقلا إلى ميـتم، لسنا بلا أب! أن يموتا، ربما! ولكن... هل هذا هو الخيار الوحيد؟

بعد صمتٍ قالتْ: أحمد، عُـد إلى حجرتـك قبـل أن ينتبـه إليـك أحد.

قلتُ: لا تقلقي، لقد أقفلا القبو، لن يخشيا شيئاً.

قالتْ: لديك عمل في الصباح البـاكر، لا عليـك، سـأكون بخـير، اذهب وخذ قسطاً من الراحة، لابد أنك متعب.

متعب! لقد كنتُ سعيداً عند الحاجّ غـانم، بينمـا كنـتِ تعـانين هنا! كلا، لن أقبل بذلك.

قلتُ لها: اليـوم سـأنام هنـا إلى جانبـك، فـإذا مـا عاودتـك أيـة أفكار، اطرقي باب القبو طرقة خفيفة، سأكون هنا.

سألتْ: أين تنام؟

أجبتُ: هنا على العتبة.

قالتْ: هذا سيء جداً!

ولكنني أجبتُ: ليس أسوأ من النوم داخل القبو.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع عشر | هالة

كانت السماء تمطر، وصوت الرعد عالياً، خفتُ النوم في غرفتي، فغادرتها لأذهب إلى جوار والدتي.

هناك كان أخي قد سبقني إلى جوارها، فقد خشي الرعد أيضاً، وضمّتني أمي إليها من الناحية الثانية.

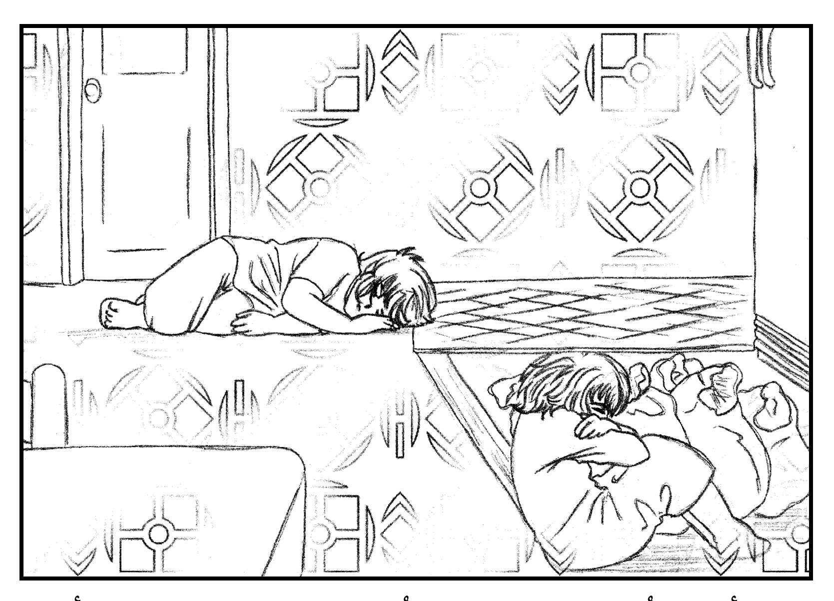
لماذا يشاركني في كل شيء؟

أذكر جيداً أنني كنت مستاءة في ليالٍ كتلك، ولكن ما أحلم به الليلة كان ذا طعم مختلف، شعور غريب جعلني أحس أن يد أخي كانت تمسك يدي، رغم أنني كنت أعلم أن والدتي تفصل بيننا، إلا أنني كنت أشعر به جيداً، إنه قريب.

فتحتُ عيني، أظن أنني استيقظتُ رغم أنني لا أرى شيئاً، البرد كان شديداً، ولكن كانت تسكن قلبي طمأنينة غريبة.

إنه هنا، إلى جواري، ينام بالقرب مني... إنه هنا من أجلي، يفعل ذلك لي وحدي... أشعر به، أشعر بدفئه يلفني.

دققتُ باب القبو بخفة، أريده أن يسمعني، ولا أريده أن يفزع في آن واحد، كنت أكيدة أنه هنا رغم أنني لا أدرك الوقت بعد، ولا أعرف إذا ما كان عليه الخروج بالقطيع الآن.



أحسستُ بحركته، ثم سمعتُ صوته يقول: هالة، هل أنت مستيقظة؟

قلتُ: نعم، هل نمتَ هنا طول الليل؟

سألتُ السؤال وأنا أعرف الإجابة مسبقاً، ولكنني أردتُ سماعها لأداعب بها أذني، قال: نعم، لا تقلقي عليّ، أنا بخير، هل تشعرين بالبرد؟

عندما سألني بدأت أشعر به، برد قارص يتخلل عظامي، القبو كان أسوأ مكان للمبيت، لقد حققتْ مبتغاها بكل مهارة، ولكن تلك العضّة كانت تستحق أكثر من ذلك.

أجبته: أنا بخير، هل من إشارة تدل على الإفراج القريب عني؟

سكتَ قليلاً ثم قال: لم ينهضا بعد، لا أظن أن والدي سيتركك هنا، ستخرجين قبل أن يغادر المنزل.

أظن ذلك أيضاً.

قال: عليّ أن أخرج بالقطيع، آسف أنني لا أستطيع البقاء طويلاً.

أكّدتُ أنه لا عليه، وأعلم تماماً أن الأمر ليس بيده، بل إنه يبذل جهداً مشكوراً على ما يفعل، بل الشكر الأكبر كان لأنه لم يؤنبني على ما فعلتُ.

سمعتُ خطواته وهو يغادر، وشعرتُ بالبرد أكثر فأكثر، لقد غادر وغادر دفؤه معه، ولم يبق في المنزل سواها، الأكثر برودة وتجمداً، وزوجها الذي لم يكن سوى غثاء للسيل.

بقيتُ في القبو فترة لم أستطع تخمينها، كانت طويلة أو طالت، ربما تعمّدتْ زوجة أبي أن تؤخر والدي عن عمله اليوم حتى أقضي وقتاً أطول في القبو، أو ربما نسي والدي أمري، فتركتني لمصيري.

لم يكن الأمر كذلك، فقد حدث ما لم يخطر لي على بال، فقد سمعتُ أصوات الأقدام تسير هنا وهناك، ثم بدأتُ أسمعها تسير

مسرعة أكثر، يبدو الاضطراب عليها! ما الذي يجري؟

سمعتُ صوت القفل يتحرك عدة مرات، ولكن باب القبو لم يفتح! ماذا يفعلون هناك؟

حاولتُ أن أنصت أكثر، وأخيراً فهمتُ ما يجري، لقد ضاع المفتاح الذي أقفلوا به القبو.

تداخلتِ الأصوات، أين هو؟ نسيتُ أين وضعته! أين جلسنا البارحة؟ هل تذكرين آخر مرة كان معك؟ لستُ أذكر، لابد أن يكون قريباً، ربما في المطبخ، ربما سقط منا، فتّشي هناك، وهناك، وهناك...

لا فائدة، أنا أعرف أين المفتاح، إنه معها...

هدأتِ الأصوات بعد فترة، وأدركتُ أن والدي قد تأخر عن عمله، وعليه أن يغادر حالاً، وعلى زوجته أن تتابع البحث عن المفتاح.

لم يكن عليها أن تبحث عنه، فقد اتجهت إلى القبو من فورها، وطرقتِ الباب لتضمن سماعي لما ستقول.

قالت بصوتٍ شديد البرودة: المفتاح في جيبي، هل تظنين أن ليلة في القبو عقاب كاف على ما فعلتِ؟

قلتُ بحزم أستجمع كل الحرارة المتبقية في جسدي: أفضل حبس القبو على أن أراكِ.

ضحكتْ تقول: لن يكون هذا جوابك بعد بضع ساعات.

بهذه الكلمة البسيطة قضيتُ في القبو بضع ساعات، كان البرد شديداً، فلم تكن لأشعة الشمس طريق إلى القبو، كما أن الظلام كان حالكاً، من المزعج ألا ترى شيئاً لساعات، كم أتوق لضوء النهار.

ماذا يفعل أحمد الآن؟ إلى أين يخرج بالقطيع؟ وهل ابتعد بهم أم أنه ما يزال قريباً؟ هل يعلم أنني ما أزال في القبو؟

عليّ ألا أستسلم، يجب أن أحافظ على رباطة جأشي، هذه لحظات مهمة من معركة مصيرية، يجب ألا أهزم.

ربما كانت هذه أفكاري في الساعات الأولى، ولكنها تحوّرت في الساعات المتقدمة، لقد حققتْ مبتغاها، وماذا يعني أن أظل هنا سوى أنني هُزمتْ! ليس باستطاعتي فعل أي شيء، هي حرة تسير فوقي، وأنا حبيسة تحتها!

غفوتُ قليلاً، ولكنها كانت تتعمد السير بخطوات مزعجة في الغرفة، فأستيقظ على إثرها، وتعاود الأفكار تدور في رأسي.

الآن بدأتُ أشعر بالجوع، تذكرتُ أنني في مخزن، فتحسستُ الأكياس من حولي، إحداها كان كيساً للسكر، أسكتّ به جوعي.

ساعة أخرى، هل حل المساء؟ هل عاد أحمد؟

■ الفصل الخامس عشر | أحمد

أكاد لا أصدق أنني تركتها في القبو، ماذا أفعل؟

كان عليّ الخروج بالقطيع، عليّ ألا أكون سبباً في المتاعب، وإلا فإنني وهالة سنلاقي عقاباً على إهمالنا.

كيف لي أن أبتعد بالقطيع؟ كيف لي ألا أظل هنا؟

لِم القلق، سينهض والدي عمّا قريب ويخرجها من القبو قبل خروجه إلى العمل، كما أن زوجته بحاجة إلى من يعاونها في العمل، لابد أن تخرج من القبو.

لستُ أدري لماذا لم يرتح قلبي، خرجتُ بالقطيع ولم أبتعد به، كل تفكيري كان في المنزل، كل عقلي ووجداني كانا في القبو، عليّ أن أهتدي إلى طريقة أعود فيها إلى المنزل دون القطيع.

أثناء انشغالي بالنظر إلى حيث المنزل، حدث ما لم يكن في الحسبان، سمعتُ صوتَ نباح سحاب، ثم أصواتاً متداخلة من عراك الحيوانات.

نظرتُ إلى حيث الصوت، فرأيتُ ذئبين كبيرين ينقضّان على خروفين من خرافنا، وسحاب يحاول الانقضاض على الذئاب الكبيرة ولكنه يطير بضربة واحدة من مخلبهما الكبير!

ماذا أفعل؟ إن الذئاب تأكل القطيع! كيف لي أن أتصرف؟ إنـني خائف، هذه الذئاب قادرة على افتراسي بكـل سـهولة، علـيّ أن أبقـى بعيداً، ولكن الخراف تموت!

قفز سحاب بشجاعة ثانية على الذئاب دون جـدوى، إنـه يعلـم أنه أصغر حجماً وأقل عزماً منهما، ولكنه شجاع.

وماذا عني أنا؟ ألا أمتلك الشجاعة؟ أم أن الاقـتراب مـن الـذئاب مجرد حمق لن يفيد في أي شيء؟

دفعتِ الـذئاب سـحاباً بـضرباتٍ موجعـة، وهربـا بـالخروفين، يبدو أنهما اكتفيا بهما، أو أن سحاباً كان مصدر إزعاج لهما.

ركـضتُ إلى سـحاب المـصاب، ولم يكـن بمقـدوري مـساعدته في شيء، بل إنني لم ألحظ هروب القطيع المتبقي من حولنا لما رأو المعركـة المحتدمة.

ها أنا ذا وحدي، أمسك سحاباً الشجاع بيـد ترجـف، ولا قطيـع حولي.

اثنان ماتا بكل تأكيد، والبـاقي هـارب لابـد أنـه سـيلقى حدفـه عاجلاً أم آجلاً!

من الذي كان يتجنب المتاعب حتى لا يلقى العقاب؟

كان عليّ أن أرتـب أفكـاري، الخروفـان ماتـا، والقطيـع هـرب، الخيار الوحيد لديّ أن أعتني بسحاب، فهو مـا بـين يـدي الآن، وهـو يحتضر.



رغم أنـني كنـت أقـرب إلى المنـزل، إلا أنـني آثـرت الـركض إلى منزل الحاجّ غانم، فهو أرأف بي وبسحاب ممن في المنزل.

قطعـتُ الطريـق في نـصف سـاعة، وصـلتُ ألهـث مـن التعـب، وأتصبب عرقاً، بينما اكتشفتُ أن سحاباً كان يقطر دمـاً طـول الطريـق، خفتُ عليه جداً ألا ينجو.

طرقتُ الباب في ذعر، أسرع الحـاجّ غـانم إلى البـاب يتكـئ علـى عصاه المهترئة، فتح الباب قلقاً من صوت الطرق الـصاخب، وزاده قلقـاً ما رأى، فقد كنتُ في حالة فزع، أحمل سحاباً المصاب بشدة.

كان أول ما سألني إياه الحاجّ غانم: هل أصابك مكروه يا ولدي؟

قلتُ: كلاّ، إنـه سحاب، دافع عن القطيع ضد ذئبين شرسين.

وضعتُ سحاباً بين يديه أرجو المساعدة بأية وسيلة، وكنتُ أعلم أن الحاجّ غانماً لن يتوانى عن بذل أقصى ما في وسعه للمساعدة.

غسل جرحه بالماء الدافئ، وأشربـه بعض المياه المختلطة بأعشاب أجهل نوعها وفائدتها، وربط جرحه بضماد حتى توقـف النزيـف، في هذه المرحلة علينا أن نعطي سحاباً قسطاً من الراحة، وقدراً كـبيراً مـن الغذاء، فآثرتُ أن أتركه عند الحـاجّ غـانم، حيـث العنايـة والهـدوء، وأعـود وحـدي إلى المنـزل، دون قطيـع، دون سـحاب، لربمـا كـان مـن

الأفضل ألا أعود، ولكنني تركتُ هالة، ولا أدري ماذا جرى لها.

حل الليل، وعدتُ إلى المنزل بخطوات متثاقلة، لستُ أدري أي مصير ينتظرني.

لم تطل تساؤلاتي كثيراً، فما إن وصلتُ إلى المنزل، بل إلى الحظيرة تحديداً، حتى وجدتُ والدي ينتظرني هناك، وأعلم تماماً أن نيران الغضب تشتعل في عينيه.

ثلاثة خرفان اهتدوا إلى طريق العودة وحدهم، وباقي الخراف قد توزعت إلى ما شاء الله، والله وحده أعلم بمن بقي منهم على قيد الحياة.

نظرتُ في عيون والدي المؤنّبة، وقلتُ بصوتُ يرجف: لقد داهمتنا الذئاب.

فصرخ قائلاً: ولماذا تخرج مع القطيع إذن؟ لتمرح وتلهو معها؟

لم يكن لديّ ما أقول، فقد كنتُ خائفاً من الذئاب، إنها المرة الأولى التي أراها عن قرب، إنها أكبر مما ظننت، كما أن مخالبها كانت طويلة، وأنيابها حادّة!

تابع والدي الصراخ، وانتهى الأمر إلى أن أنام خارج المنزل، تحديداً في الحظيرة حيث كانت الخراف.

لم أجادل، فلم يكن لديّ ما أقول، دخلتُ الحظيرة وأغلق والـدي الباب بإحكام، هنا لا يوجد ما أنام عليـه، أو مـا أسـتدفئ بـه، الـبرد شديد!

برد، هل هو بمثل برودة القبو؟ وأيـن هالـة الآن؟ لم يتـسنّ لـي معرفة ذلك، ولم أستطع حتى أن أسأل.

فلماذا عدتُ إذن؟ ألم أعد من أجل هالة؟

■ ■ ■

■ الفصل السادس عشر | هالة

كان الثلج يتساقط، وكانت والدتي تصنع معنا مجسّمات ثلجية جميلة، بينما كنتُ وأحمد نجمع الثلج بشكل عشوائي.

يبدو أنني غفوتُ لوهلة، ما يزال الظلام حالكاً، وليس من صوتٍ يسير فوقي، كم الساعة الآن؟ وأين أحمد؟ ألا يعلم أنني ما أزال في القبو؟ ألا ينام إلى جانبي الليلة؟

وهل حل الليل؟ ربما، فقد اشتد برد القبو، أريد غطاءً، أحلم بكوب حساء دافئ، أو كوبٍ من القهوة، أشربه وأنا أراقب الأجواء في الخارج.

بم تحلمين يا هالة، ألا تعلمين أن عهد الأحلام قد انقضى! سيكون من الجيد أن يتذكرك أحدهم لتخرجي من القبو، ويبدو أن ذلك سيطول!

ما هذا! هناك ما يتحرك تحت قدمي! إنه يتحسسها! هذا فرو! يا إلهي... لابد أنه فأر! آه...!

تابعتُ الصراخ وارتطم رأسي بباب القبو عدة مرات، فأر! فأر هنا! النجدة! النجدة! أخرجوني من هنا! ماما! ماما!

وسط الفوضى فُتح باب القبو، كان والدي هناك، وبدون أن أشعر

قفزتُ عليه أحتمي به من الفأر، كما كنتُ أقفز أحتمي به من قبل!
لماذا تغيرتِ الأحوال فجأة؟

نظر والدي في القبو، لقد اختفى الفأر في مكان ما، نظر إلي يتساءل هل كان هناك فأر فعلاً أم أنني اختلقتُ الأمر. قلتُ من فوري أدافع عن نفسي: لقد كان تحت قدمي، لقد كان كبيراً!

وضع والدي يده على شعري، كانت لمسته حنونه، وتركني ليعود إلى فراشه.

نعم كان الوقتُ ليلاً، وقد نسيني في القبو، رغم كل ذلك فلن أنس تلك التربيتة الحنونة، وهل كنتُ أطلب أكثر من ذلك؟

أغلقتُ باب القبو، واتجهتُ إلى غرفتي، وأخيراً أستلقي على الفراش الدافئ، وأغطي نفسي جيداً، وداعاً للبرد.

غفوتُ من فوري، فقد كنتُ تعبة جداً، وبعد ما يقارب النصف ساعة استيقظتُ فزعة، نهضتُ بسرعة أفكر، أين أحمد؟

غادرتُ الغرفة، واتجهتُ إلى غرفته خارج المنزل خلسة، طرقتُ الباب وفتحته ولكنه لم يكن هناك! أين هو؟ ألهذا لم يحضر إليّ؟

لا أستطيع أن أسأل أحداً عن مكانه، عليّ أن أبحث في كل مكان،

كما أنني لا أستطيع أن أنادي بصوتٍ عالٍ.

لحسن الحظ كان أول مكان أبحث فيه هو الحظيرة، نظرتُ إلى بابها فكان مقفلاً بإحكام، ولكن لم يكن هناك قفل كما كان في القبو. رفعتُ الخشبة وفتحت الباب، كانت الحظيرة فارغة! أين الخراف؟

مشيتُ قليلاً إلى الداخل لألحظ أحدهم يستلقي على القش في زاوية الحظيرة، وقد صدق حدسي، إنه أحمد.

قلتُ بصوتٍ لطيف: أحمد! ماذا تفعل هنا؟

فتح أحمد عينيه المرهقتين، لم أره هكذا من قبل، يبدو التعب واضحاً عليه، رفع رأسه يتعجب وجودي، فأعدتُ عليه السؤال: ماذا تفعل هنا؟ الجو بارد.

ابتسم وأجاب: أفعل ما كنتِ تفعلينه في القبو.

سألته: أقصاص هذا؟

نظر حوله، فسألتُه: أين الخراف؟

أجاب: لقد أضعتُها.

شعرتُ بهول المصيبة، كل الخراف ضاعت! لابد أن والدي قد صبّ جامّ غضبه عليه! ولكنني سألتُ فوراً: وثلج؟

أجاب: سحاب عند الحاجّ غانم، أصيب ببعض الجروح أثناء

عراكه مع الذئاب، فضّلتُ أن أبقيه في عناية الحاجّ غانم.

نئاب! تعارك مع الذئاب! يبدو الوضع خطيراً.

رفع أحمد جسده عن القش بصعوبة، والتصقت على ثيابه الكثير منها، فقلتُ: الجو بارد هنا، سأجلب لك غطاء.

خرجتُ مسرعة واتجهتُ إلى غرفته، وجلبتُ غطاءه إليه، فنظر إليه وقال: سيغضب والدي لذلك.

ولكنني قلتُ: لقد غضب بما فيه الكفاية، ليس هناك ما هو أسوأ.

نظر أحمد إلى الغطاء وابتسم قائلاً: لم أستطع أن أجلب لك غطاءك في القبو.

ما يزال يفكر في أمر القبو وما جرى، ولكنني أجبته بسرعة: أنا خارج القبو الآن، ويكفي أنك نمتَ الليلة إلى جانبي.

لففته بالغطاء جيداً ليستدفئ قدر المستطاع، وتركته بعد أن تأكدتُ أنه قد نام، وأغلقت الحظيرة كما كانت، وعدتُ إلى غرفتي أفكر أي حظ عاثر يلاحقنا.

■ ■ ■

■ الفصل السابع عشر | أحمد

البرد شديد في الحظيرة، جدار خشبي رقيق يفصلني عن عواصف الليل، أكاد أتجمد.

لففتُ نفسي بالغطاء الذي أحضرته هالة، ولكن البرد ما يزال يتسرب إلى أضلاعي، لا أستطيع النوم.

إضافة إلى أصوات الخراف المتبقية التي تنتحب على العائلة المفقودة، والرائحة الكريهة، لا أستطيع احتمال ذلك!

لستُ أدري كيف انقضى الليل، بل إنني لا أدري من دخل الحظيرة في الصباح، ومن أيقظني، ولكنني لم أستطع النهوض.

شخص ما حملني، وضعني على فراش ناعم، وغرفة دافئة، هناك أصواتٌ من حولي، صوتُ هالة كان بينهم.

ماذا دها لي؟ لماذا لا أستطيع أن أنظر إليهم؟ لماذا لا أملك القوة لفتح عيني، لرفع يدي، لسند ظهري؟

لديّ عمل في الصباح، آه القطيع ضاع، ما العمل الذي يتوجب عليّ فعله؟ لا عمل لي! ألهذا أنام دون اكتراث؟

وضع أحدهم يده على رأسي، ثم تلتها خرقة مبللة بماء بارد! ألا يعلمون أنني أرتجف من البرد؟ ماذا يريدون بعد؟ هل هي زوجة

والدي تزيد من آلامي؟

هدأتِ الأصوات فجأة، يبدو أنه كان قراراً حاسماً في أمري، هل هناك عقاب آخر؟

أحمد! أحمد! هذا صوتُ هالة! إنها إلى جانبي.

لحظاتٌ هي وغادرتْ هالة أيضاً، إنني وحدي، أعلم تماماً أنني وحيد، ماذا سيحل بي؟

هذا خروف! هل أنت من الخرفان الضائعة أم أنك في الحظيرة؟ إنه يبتعد! عد! عد! ألا تعلم المتاعب التي عانيتها بسببك؟ تعال هنا!

ولكنه اختفى، كما اختفت جميع الخراف.

سحاب، أهذا صوتك؟ هل تتألم؟ هل تعاني البرد مثلي؟ ولكنك عند الحاجّ غانم! ولستَ عند زوجة والدي الشرسة، بل إنك لا تستحق أي عقاب، فقد كنتَ شجاعاً، بينما تخاذلتُ أنا.

حاجّ غانم، هل حضرتَ من أجلي؟ تعال معي لتراك هالة، ستسعد جداً بقدومك، لقد كنتُ أفكر بطريقة آخذها بها إليك، ولكن بما أنك هنا الآن تستطيع أن تراك... حاجّ غانم! إلى أين تذهب؟

لماذا يتركني الجميع؟ أمي... لِمَ لَمْ تحضري؟ هل أنتِ بعيدة جداً؟ أمي...

■ الفصل الثامن عشر | هالة

ذات ليلة تسللتُ إلى صندوق العلاجات، فكان هناك دواء مستحلب حسن الطعم، فتحته وبدأتُ أشرب منه، أذكر أنه كان شهياً، ولكن... ما إن رأتني أمي حتى فزعتْ، وبدأتْ توبخني دون أن تدري ما تفعل، أخذتْ الدواء الذي كنتُ قد شربتُ نصفه، وحملتني بسرعة إلى والدي الذي جهّز سيارته لينقلني إلى أقرب مستوصف!

لماذا يفعلون كل هذا؟ الدواء لذيذ، ولا أشعر أنني مريضة!

بعد حساباتٍ بسيطة، تذكرتْ والدتي أن أقرب عيادة تبعد عنّا مسافة لا تقل عن الساعة والنصف بالسّيارة! أنزلتني في منتصف الطريق، وحاولتْ إجباري على التقيؤ.

شعرتُ لحظتها أنها عنيفة، لماذا تؤنبني بهذه القسوة؟ أنا لا أشعر بأي مكروه!

وضعتْ إصبعها في حلقي، ضغط والدي على بطني، كان ذلك مؤلماً، ولكنني لم أتقيأ! لماذا هم فزعون هكذا؟

أخيراً قررتْ والدتي استعمال بعض الخلطات، ظننتها ستضع الكثير، ولكنني رأيتها تخلط الماء بكمية كبيرة من الملح! أشربتني إياه رغماً عني.

كان الطعم مالحاً جداً، ليس هناك سوى الملح! لماذا أشربُ هذا؟ ولكنني لسعادتهم تقيأتُ الماء المالح مع ما تجرّعتُ من دواء.

أذكر جيداً الطمأنينة التي ارتسمتْ على وجههما في تلك اللحظة، أعادوا السيارة إلى المنزل، وتابعتْ والدتي توبيخي، ولكن هذه المرة بوضوح وهدوء، فقد أوضحتْ لي أن كثرة الدواء كانت كفيلة في أن تقضي عليّ! كيف لدواء لذيذ كهذا أن يسبب الوفاة؟

كانتْ هذه ذكراي الوحيدة لغضب والدتي عليّ، الآن أعلم تماماً أنها كانتْ محقّة، وأنها كانت تحبني وتخشى عليّ، وليس الأمر أنها كانت تحرمني من شراب لذيذ كما كنتُ أظن.

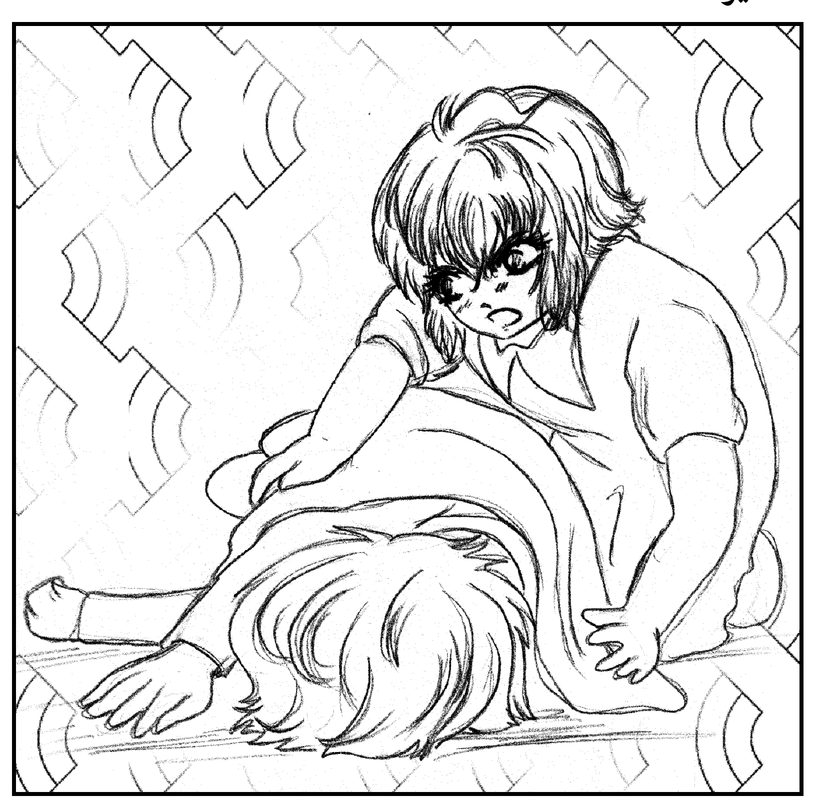
استيقظتُ من النوم أفكر في ليلة أحمد، لقد كان البرد شديداً، فليلة في القبو كانتْ أرحم من ليلة في الحظيرة خارج المنزل!

نهضتُ مبكرة، وذهبتُ إليه قبل أن يستيقظ أحد، فتحتُ باب الحظيرة فكان أحمد ما يزال نائماً في المكان ذاته، يلفّ نفسه باللحاف.

اتجهتُ إليه أوقظه، ناديتُ اسمه بصوتٍ خافتٍ فلم يُجبْ، هززتُ كتفه برفق، ولكنه لم يستيقظ أيضاً! حركتُه بقوة، ولكنه أيضاً لم يفتح عينيه!

كان ذلك مريباً، نظرتُ في وجهه فإذا به يتصبب عرقاً! وضعتُ يدي على جبينه كما كانتْ تفعل والدتي، فكانت حرارته مرتفعة جداً!

دون تفكير ركضتُ إلى المنزل أنادي والدي، الذي نهض فزعاً، يستمع إلى ما أقول في شأن أحمد، ولكنه قال: لماذا تذهبين إلى الحظيرة؟



تجاهلتُ ما قال، وشعر بأهمية الأمر عندما أخبرته أنه لا يستيقظ مهما فعلتْ، فركض معي إلى الحظيرة، وشاهد بنفسه ما وصفتُ.

كان أحمد يتصبب عرقاً، ويبدو عليه أنه يهذي في نومه الذي لم يستيقظ منه رغم محاولاتنا لإيقاظه.

حمله والدي إلى غرفته، وأحضرتُ دلواً من الماء أغسل وجهه، ثم قرر والدي أن يتجه إلى المدينة ليجلب معه طبيباً بأسرع ما يمكن.

غادر والدي، وتركني إلى جوار أحمد، ورغم الحالة المتوترة كانت الأفعى ما تزال تجول وتخطط.

دخلتْ الغرفة تنظر إلى حال أحمد، ثم تجاهلَتْه لتنظر إليّ وتقول: هذا عمل إضافي لم أحسب له حساباً.

قلتُ منزعجة: لا تعتني به، أنا سأتكفل الأمر.

ابتسمتْ تعاود إحكام سيطرتها على الموقف تقول: لقد دخلتِ الحظيرة دون إذن، لن تنجِي من العقاب.

أجبتُ بحزم: بعد أن يتماثل أحمد للشفاء تستطيعين أن تفعلي بي ما تشائين، سأنام في الحظيرة عوضاً عنه، سأفعل أي شيء.

كان ردّي قوياً صامداً أمام دسائسها، فاغتاظتْ لذلك وقالتْ: هل

تظنين أنكِ قوية؟

ولكنني أجبتُ بصدق: بل أظن أنني أكرهك.

خرجتْ من الغرفة وأغلقتِ الباب بقوة خلفها، عليّ أن أركز كل اهتمامي بأحمد، فيبدو أنه يحتاجه، ولكن هل أنا خير من يعتني به الآن، أمي... ليتك كنتِ هنا.

بعد ثلاث ساعاتٍ من التنقل في المدينة، والبحث عن الطبيب المناسب، والذي يستطيع الحضور إلى هنا بالأجر المناسب، عاد والدي، وعاين الطبيب أحمد.

لم يُسمح لي بالدخول مع الطبيب، كان والدي معه بينما دفعتني زوجته لتحضير وجبة يتناولها الطبيب عندنا.

قمتُ باللازم بأسرع ما أمكن، وكانت الأطباق الشهية معدّة في ثوان، وعدتُ أقف خلف الباب أستمع إلى ما يقول الطبيب.

خرج الطبيب يتحدث إلى والدي، كان يقول كلاماً كبيراً لم أفهم منه شيئاً، هل سيكون بخير؟

نظر الطبيب إلى عينيّ القلقتين، فربّتَ على شعري يقول: من هذه الجميلة؟

أجاب والدي: إنها ابنتي هالة.

ولكنني قاطعتُ الحديث الذي كان رغم قلقي جميلاً للغاية، فقد مرّتْ فترة لم يربت فيها أحدهم على شعري، وقد مرّتْ فترة أطول لم يقل فيها أحدهم لي أنني جميلة!

هل هو بخير يا حكيم؟

ابتسم الطبيب وقال: هل ستعتنين بأخيك جيداً؟

أجبتُ: بكل تأكيد.

قال: إذن سيكون بخير بإذن الله.

قُلتُ: هل حالته خطرة؟

أجاب: مع العناية الكبيرة لن تكون كذلك.

نظرتُ إلى والدي واسترحمتُ آخر ما تبقى لديه من حنان الأبوّة أقول: اجعلني أعتني به، سأفعل ما كانت تفعل والدتي.

قال: هل تستطيعين ذلك؟

أكّدتُ له أنني قادرة على ذلك، وإلا فهل كان سيترك أمر عنايته لتلك الأفعى؟

وافق والدي، وأخيراً تسنّت لي الفرصة للبقاء إلى جانب أحمد بعيداً عن أعمال المنزل المجهدة.

قضيتُ ثلاثة أيام بلياليها إلى جانبه لا أغادر إلا لتبديل المياه،

اعتنيتُ بأمر طعامه وشرابه ودوائه، وتوليتُ أمر تنظيف الغرفـة، إلى أن استعاد نشاطه، ولكن أمراً ما دعانا لاستدعاء الطبيب ثانيـة، منظـر أراه لأول مرة في حياتي، إن لـون أحمـد قلـب إلى الـصفار! هـل يـصبح الإنسان منّا أصفر عند المرض، أم أن مرضه خطير؟

■ ■ ■

■ الفصل التاسع عشر | أحمد

يبدو أنني أغوص في غيبوبة غريبة، أصواتٌ كثيرة حولي، يبدو أنهم يتحدثون في أمري.

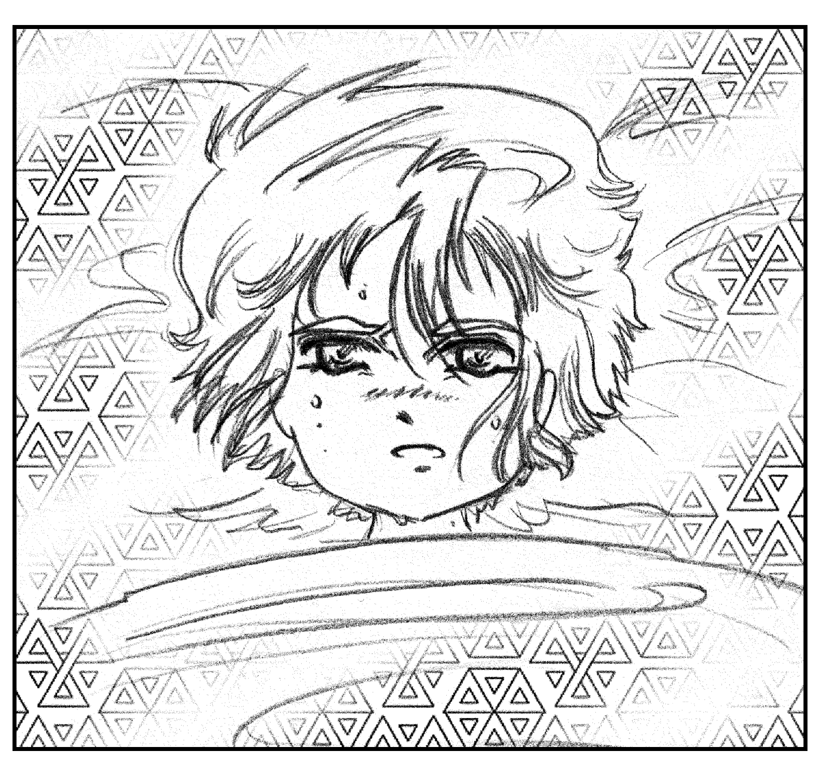
هالة هنا، إنها في الغرفة، أريد أن أراها، هل هي سعيدة أم حزينة؟ لماذا لا أستطيع فتح عيني؟

غيبوبة ثانية، تلاشتْ الأصوات، هدوء تام، يبدو أنه الليل، أشعر بالدفء، المكان مريح بشكل غريب، مرّ زمن ولم أشعر بهذا الأمان، أشعر وكأن والدتي هنا، أمي... هل أنتِ هنا؟

غيبوبة... أستطيع تحريك جفني أخيراً، إنني أفتح عيني وليست لدي أدنى فكرة عن المدة الزمنية التي استغرقتني حتى أفعل، كانتْ أول ما رأيتُ... هالة، إنها إلى جانبي تعتني بي كما كانت ستفعل والدتي، الحمد لله أنها بخير.

نظرتُ حولي، إنها غرفتي، ولكن فيها موقداً متحركاً في المنتصف، جعل الغرفة أكثر دفئاً، وهذه البطانية خاصة بهالة، تلفها فوق بطانيتي لتعطيني دفئاً إضافياً، وهناك شاش من الماء على رأسي، إنها تبدله بين حين وحين.

أستطيع سماعها تتحدث إليّ، ولكنني لا أقوى على الحراك، إنني منهك، ماذا جرى لي؟



ياللعجب، إنه والدي يدخل الغرفة ليطمئن عليّ، ولكنه يبدو قلقاً، ما إن نظر إليّ حتى غادر الغرفة مسرعاً، ماذا رأى؟ هل هناك تشوه في وجهي؟ هل أصبحتُ مخلوقاً آخر؟ ولماذا لا تهرب هالة؟

أظن أنني غفوتُ مجدداً، فقد استيقظتُ لأرى طبيبَ المدينة يعاينني، كشف عن بطني وصدري وحلقي، هل أنا بخير، هل الوضع خطير؟

لم أهتد إلى الإجابة، فقد غادر الغرفة مع والدي، وبقيتُ مع

هالة وقد استعدتُ قدراً جيداً من الوعي حتى أشكرها على ما تفعل، ولكنها كانتْ قلقة، لفّتْ الفراش حولي لأستدفئ من جديد، وركضتْ إلى الخارج تلحق الطبيب.

هل أنا بخير؟ ماذا يجري؟

أظن أنني غفوتُ من جديد، لربما كانت ليلة أخرى، أو التي تليها! لستُ أدري، ما عاد للزمن أي قيمة الآن، ولكنني أشعر بتحسن، للنوم آثاره الإيجابية، لا عمل، لا عقاب، لا مشاكل، هل أستطيع أن أبقى هكذا؟

لا، هذا كله على حساب هالة، إنها من تعتني بي، ولابد أن لها عملاً مرهقاً في المنزل، عليّ أن أستعيد طاقتي حتى أساعدها.

لقد ضاع القطيع، أم أن هذا كان كابوساً من ضمن الكوابيس المتكرره، يبدو أنني متعب وأهذي، ولكن... أليست الليلة في الحظيرة من فعل بي هذا؟

غفوتُ مجدداً، كم مرة سأستيقظ وأنام؟

صحوتُ ثانية لثوان، أشعر بغثيان شديد، تقيّأتُ فوراً على الفراش، فلم أستطع تجنّب ذلك، أظن أنني سببتُ الكثير من المتاعب لهالة!

■ الفصل العشرون | هالة

خرجتُ مسرعة ألحق الطبيب لأسمع ما سيقول، علّي... وأنا ابنة ثمان سنوات، أستطيع استيعاب ما يقول.

التفاصيل لم تكن مهمة، العدوى لم تكن مهمة، التقيؤ لم يكن المشكلة، هل وضعه خطير أم لا؟ هل سيعيش أم أنني سأظل بلا أم وأخ؟

طمأنني الطبيب أن هذا المرض عارض، وأنه يستعافى إن شاء الله، فقد زالت عنه الحمّى، وقد أحسنتُ العناية به، وعليه بالمغذيات والسوائل، وسيكون كل شيء على ما يرام، وسيزول الصفار تدريجياً.

حمداً لله، لن أظل وحيدة، سيكون بخير، عليّ أن أعتني به جيداً حتى يستعيد عافيته تماماً.

حاولتُ أن أجعله يشرب الحساء الساخن الذي جلبه والدي له، ولكنه تقيأه، بدأ يتقيأ معظم الطعام!

كان عليّ أن أحدّ من كمية الوجبات، وأن أزيد تكرارها خلال اليوم، وأن أركز على السوائل منها، فهكذا نصح الطبيب، مع ذلك لم يكن يحتمل أحمد طعاما إلا الذي يتناوله بعد حبة الدواء، فكنتُ حريصة على أن تكون كمية السوائل فيها كافية.

استعاد وعيه في الليلة الرابعة، وتحدّث إليّ أخيراً: هالة...

ماذا جرى لي؟

جلستُ إلى جانبه أقصُّ عليه باختصار ما جـرى، وكيـف أثّـرت الليلة الباردة سلباً عليه، ولم أذكر له شيئاً عـن اللـون الأصـفر، حيـث أكّد الطبيب أنه سيزول عمّا قريـب، وأكّـدتُ عليـه أن يـشرب ويأكـل جيداً حتى يستعيد عافيته.

ابتسم أحمد ثم قال: لقد كنتِ من اعتنى بي طيلة الوقت.

ابتسمتُ ساخرة أقول: وهل تظنني كنتُ أسلّمك لتلك الأفعى؟

ضحك أحمد ضحكة خفيفـة حبـسها الإرهـاق، وضحكتُ معـه ألطف الأجواء التي توترتْ فترة من الزمن.

لم يشكرني أحمد شفاهية، ولكـنني كنـتُ أعلـم أن سـبب ذلـك ليس الجحود بما صنعتْ، بل هو الامتنان فوق كلمة شكراً، فقد كانـتْ عيناه تنطقان بذلك.

تحـسنت أحوالـه تـدريجياً، صـحيح أن اللـون الأصـفر يتحـسن ببطء، إلا أنه قد تحسن عن ذي قبل، وبات أحمـد أفـضل حـالاً، يأكـل جيداً، وينام ساعاتٍ أقل.

طلبتْ إليّ زوجة إبي أن أعاود العمل، فقد اتسخ المنـزل، وعلـيّ أن أنظف كل زاوية فيه، لستُ أدري ماذا كانتْ تصنع كل تلك المدة!

عـدتُ إلى العمـل الجـاد والمرهـق صـباحاً، وإلى العنايـة بأحمـد مساء، وقد كانتْ سعادتي غامرة بالوقت الـذي نـستطيع قـضاءه معـاً في سلام عندما يعود والدي إلى المنزل، ولا تستطيع أن تمنعني من البقاء في غرفة أحمد.

كان حديثنا مليئاً بالضحك والفكاهة، وكنّا نتناول طعامـاً شـهياً كنّا قد حُرمنا منه لعدة أيام، رُبّ ضارة نافعة.

بعد يومين عدتُ إلى غرفة أحمد بعد عمل شاق دام طيلـة اليـوم، دخلتُ عليه أحمل بعضاً من المحصول الطازج في الحقل، كنـتُ سـعيدة رغم التعب، أتلهف للـسويعات الـسعيدة كـل يـوم، ولكـن اليـوم كـان مختلفاً، لسبب أجهله كان أحمد هائماً كئيباً.

لم يفصح لي عن السبب، ولم يخطر لـي أي علـة تجعلـه تعيـساً بعد يوم جميل من الراحة! ماذا جرى؟ لا يبدو أن أحـداً قـد آذاه، هـل قالتْ له شيئاً سيئاً؟ هل هددته بشيء ما؟

لم يفـصح لـي أحمـد عـن الـسبب، وحـاول الابتـسام مـراراً دون جدوى، أعلم أنه كان يحاول من أجلي، ولكـن هـذا لم يكـن مـا أريـد، أريد أن أعرف ما جرى.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والعشرون | أحمد

هي بضعة أيام على ما يبدو وقد استعدتُ صحتي وقدراً جيداً من الطاقة.

أعلم جيداً أن الفضل الأول بعد تدبير الله هو عناية هالة بي، وسهرها إلى جانبي.

كانتْ في سعادة غامرة، فقد استعدتُّ وعيي، وتحدثنا كثيراً، وضحكنا كثيراً، رغم أنها عادتْ إلى العمل الشاق في صباح اليوم التالي، إلا أن والدي لم يكن ليمنعها من السهر إلى جانبي في الليل، وجلب الطعام الطازج والشهي كل ليلة.

يا لها من ليال جميلة تلك التي نقضيها معاً كأخوين متحابين، رغم المضايقات والصعاب، كنّا معاً، وكان هذا كافياً.

الشخص الوحيد الذي لم يكن ليقبل بهذه السعادة في المنزل كانت زوجة والدي، فقد بعثتْ بهالة إلى العمل الشاق والطويل، وبعد أن تأكدتْ أنني أجلس وحدي في الغرفة دخلتْ عليّ.

لم أتوقع منها أن تحمد الله على سلامتي، ولا أن تلاطفني ببعض عبارات السعادة لشفائي، ولكنني أيضاً لم أتوقع ما قالتْ.

حدّقتْ بي مدة طويلة تمتص فيها غيظاً طال أمده، وتحضر فيها

قنبلة لم أكن لأتصورها ما حييت، وقفتْ على بعد أقدام مني، ثم ابتسمتْ بسخريةٍ تقول: لقد نجوتَ على ما يبدو.

لم أُجبْ، لم تنتظر إجابة فقد أضافتْ على الفور: أو كما تظن.

لم أفهم ما ترمي إليه، ولكنها قالتْ بشكل واضح: هل تعلم ما أخبرنا به الطبيب؟

سألتُ وقد بدأ القلق يتسرب إلى قلبي: ماذا قال الطبيب؟

أجابتْ بشكل واضح: قال أنك مصاب بالإيدز.

لصبي في الثامنة كان هذا مصطلحاً غريباً، ولكن أسلوب الإجابة أوحى إليّ أنه شيء خطير! هل أتابع الاستفسار أم أكتفي بهذا القدر من الجهل المختلط بالعلم الناقص؟ ولكنها لم تكن لتتركني على جهلي، فقد أصرّت أن أعرف أكثر من ذلك، فقالتْ: هل تعلم ما هو الإيدز؟

بعد صمتٍ أشرتُ بالنفي بكل صدق، فاقتربتْ من أذني لتقول بكل وضوح وصراحة مسمومة: إنه مرض مميت، سوف تموت قريباً، وسأعاين ذلك أمام عيني، وسأكون حريصة على ألا أفوتَ تلك اللحظة.

لم يعد هناك ريق أبتلعه، جفّت الدنيا في لحظة، شعرتُ وكأنني قد متّ، سكنَ كل شيء، ماذا يجري؟ وماذا يعني كل هذا؟

ولماذا أموت؟ ماذا فعلتُ؟

هل أخطأتُ في شيء ما؟ هل أعاقَب على عمل ما؟ من أين لي بمرض مميت؟ ما الذنب الذي اقترفته؟

وما هذا المرض الغريب؟ ولماذا أموتُ وأنا أشعر بتحسن؟ هل هذه أسرار الأمراض المميتة، تقطف الروح في لحظة، وتترك الجسد هائماً وراءها؟

أحسستُ بزوجة أبي تبعد فمها عن أذني وكأن دهراً كاملاً قد مضى، ولن أنسى تلك الابتسامة ترتسم على وجهها رضى وسعادة ببلائي.

عقدتْ ذراعيها بزهو وفخر، لقد تخلصتْ من طفل صغير خائر القوى، لقد أزاحتْ عائقاً لم يدم بضعة أيام على خط التاريخ، ولم يدم بضعة لحظات في حياتها.

استدارتْ لتغادر الغرفة تاركة جثة هائمة وراءها، ولكنني سألتها قبل أن تغلق الباب مستدركاً كل الظروف التي أعيشها: هل تعرف هالة؟

ذابتْ ابتسامتها، ولكنها أجابتْ: لا، ولكنني نسيتُ أن أذكر لك أن هذا المرض معدٍ.

ألقتْ آخر كلمة كسيف في صدري، معدٍ! وماذا عن هالة؟ هل بتّ أشكل لها خطراً جسيماً؟

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والعشرون | هالة

أذكر اليـوم الـذي علّمـتني فيـه والـدتي جمـع الحطـب وإشـعال الموقد، كان عملاً مرهقاً تقوم به وحدها، ورغم أننا قد تعلمناه منها إلا أنـها كانت تمنعنا مـن إيقـاد الحطـب، خوفـاً منهـا علـى سـلامتنا مـن النيران.

هنا أقوم بإيقاد كل المواقد، والتأكد على إبقائهـا موقـدة، وغالبـاً ما كانت تلسعني النيران الحارقة، هذه اليد التي مـا كانـت لتتـأذى في وجود والدتي، باتت مليئة برسومات مختلفة من أشكال الشقاء.

أفقتُ في الصباح، وكنتُ نائمة في حجرة أحمد، بينما ينـام علـى فراشه أفرد لحافي لأنام به على الأرض إلى جانب الموقد الدافئ.

نهضتُ لأبدأ اليوم الشاق، ولكن أحمد لم يكـن في الفـراش! أيـن ذهب يا ترى؟ هل سيبدأ العمل منذ اليوم؟

خرجتُ من الغرفة قبـل أن تـدخل زوجـة والـدي، الـتي قالـتْ مستاءة: لقد تأخرتِ في النوم، لِم أنـتِ كـسولة هكـذا؟ وهـل مـا يـزال الأبله نائماً؟ هل يظن أنه مريض إلى الأبد؟

علمتُ أنها لا تعلم بخروجه، يبدو أنه قد خـرج وحـده، فقلـتُ أمنعها من دخول الغرفة: إنه يتقيـأ، لم أنظـف الغرفـة بعـد، سـأقوم

بكل العمل.

أنِفتْ من الدخول، وتركتني قائلة: ابدئي بتنظيف المنـزل قبـل هذه الغرفة، لربما تقيأ ثانية.

أين أنت يـا أحمـد؟ ولمـاذا لا تخبرنـي مـا تفعـل؟ لم تكـن علـى طبيعتك الأمس، ما الذي جرى؟

بدأتُ العمل الشاق، وبقيتُ حريصة ألا تقـترب زوجـة أبـي مـن غرفة أحمد، يجب ألا تعلم بغيابه بأي شكل.

تساءلتُ لحظات، هـل علـيّ أن أكـون قلقـة علـى غيابـه؟ ولكـن الإجابة السريعة كانـت؛ أي مكـان أفـضل مـن هـذا المنـزل، لابـد أنـه يستريح في مكان ما.

غسيل، مسح، طبخ، حتى العناية بالحقـل كانـت مهمـتي، أمـا هي فكانت تجلس في المنزل فحسب، لـستُ أدري كيـف تقـضي وقتهـا هناك، ولكنها تخرج إليّ عندما تمل، وتلقي عليّ كلماتٍ قاسية اعتدتُ تجاهلها، ثم تعود إلى حجرتها ثانية.

سارتِ الأيام على هذا المنوال، وأظنها ستظل هكـذا إلى مـا شـاء الله، يا رب متى الفرج؟

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والعشرون | أحمد

لم أستطع النوم، نهضتُ من الفراش الساعة الثالثة صباحاً، لم يكن الفجر قد حان، ولم يكن أحد مستيقظاً، إذن هي الثالثة من منتصف الليل ولا تقرب للصبح في شيء.

خرجتُ من الغرفة بهدوء، حيث كانت هالة تنام على لحافها بالقرب من الموقد، ولم أشأ أن أوقظها، لا أظنها ستقلق إن لم أكن هنا صباحاً، فلن أتأخر.

خرجتُ أعرف وجهتي، المكان الذي أستطيع أن أثق به، المكان الذي سأجد فيه الإجابة عن تساؤلاتي، المكان الذي بقي لي بعد كل النكبات المتوالية، المكان الذي استأمنته على سحاب، الحضن الدافئ.

لم أكن قد نسيتُ مخاطر الطريق، ولم أكن أتجاهل وجود الذئاب في المنطقة، ولكنني ركضتُ بأقصى سرعة وسط الظلمة، في طريق مستقيمة إلى حيث منزل الحاجّ غانم.

قطعتُ الطريق في جري متواصل، هل يستطيع مريض فعل ما فعلتُ؟ هل شخص يركض بهذه السرعة على حافة الموت؟ هل سأموتُ فعلاً؟

أظنني قطعتُ المسافة في نصف ساعة، ووصلتُ قبل أن تشرق

الشمس، طرقتُ الباب وأنا أكيد أن الحاجّ غانم سيقلق قلقاً شديداً، ولكنني كنتُ قلقاً فعلاً.

طرقتُ مراراً حتى لا يظن أنه يهذي، بعد عشر دقائق وصل الباب، وسمعتُ صوته المبحوح يسأل قلقاً: من هناك؟ من الطارق في هذه الساعة؟

أجبتُ: أنا أحمد، آسف لإزعاجك في هذا الوقت المتأخر.

فتح الحاجّ غانم الباب بسرعة، وكان القلق بادياً على وجهه، سألني على الفور: هل حدث مكروه ما؟

ربما، ولكن من أين أبدأ؟ كذبتُ قائلاً: ليس من مكروه، ولكنني لم أستطع النوم، وأحببتُ أن أطمئن على سحاب.

نظر الحاجّ غانم إليّ نظرة المشكك الذي ينتظر كلاماً أكبر من هذا، ولكنني أكّدتُ له قائلاً: هذا كل ما في الأمر، لا أريد أن توقظني زوجة أبي.

أدخلني وأقفل الباب من خلفي، ثم سألني على الفور: ماذا فعل والدك من أجل القطيع الضائع؟

ماذا فعل من أجل القطيع، أم ماذا فعل بي؟ أجبتُ: ما باليد حيلة.

هز رأسه أسى على الخسارة، ولكنه بشّرني قائلاً: سحاب يتحسن بسرعة، سيكون بخير في بضعة أيام، تستطيع أخذه إلى المنزل إن شئت.

قلتُ: العناية به هنا ستكون أفضل.

جلستُ على الأريكة أحاول أن أدخل في الموضوع الذي جئتُ من أجله، ولكن طالما كان الحاجّ غانم ينتظر ذلك كان يصعب عليّ البدء فيه، فضّلتُ تأجيله قليلاً علّه لا ينتبه إلى أهميته بالنسبة لي.

سألني: هل أفطرتَ؟

أجبتُ: ليس بعد، ولكنني لستُ جائعاً.

هزّ رأسه وابتسم قائلاً: أنت في ضيافة الحاجّ غانم، لا تتردد في طلب أي شيء.

ابتسمتُ وقلتُ: هل لي بكوب من الحليب؟

اعتدتُ أن الحليب عنده طازج لذيذ، ففرح بطلبي وهرع إلى زاوية المطبخ الصغير يحضر الحليب.

لم أتحدث في أي موضوع، فسألني: كيف حال هالة؟

أجبتُ: اعتادت الظروف القاسية.

سأل: هل تشتكي من سوء المعاملة؟

فكرتُ قليلاً، ثم قلتُ: لا، أظن أنها قوية.

ابتسم الحاجّ، ثم ناولني كأس الحليب الطازج، ولكنه كان يحمل معه ثلاث كؤوس بلاستيكية أخرى، لم أعرف ما ينوي فعله بها.

بدأتُ شرب الحليب، كان لذيذاً وطازجاً، ولكنني لم أكن أستطيع التركيز في غير السؤال الذي يلح على عقلي.

وضع الحاجّ غانم طاولة أمامي، ووضع الكؤوس الثلاث مقلوبة ومصطفة على خط مستقيم، ثم رفع بيده قرشاً قديماً صدئاً، وخبأه تحت الكأس الأول.

راقبتُ ما يفعل، حرّك الكؤوس بين بعضها دون أن يرفعها عن القرش، توقف وسألني: أين تظن القرش؟

أشرتُ إلى الكأس في المنتصف، ولكنه رفع الكأس فلم يكن القرش تحته! ثم رفع الكأس الأول فكان القرش ما يزال هناك!

وضعتُ الحليب جانباً، كنتُ واثقاً أن القرش تحت الكأس في المنتصف! كيف يفعل ذلك؟

ابتسم الحاجّ غانم وقال: ركّز.

رغم أن يد الحاجّ كانت ترجف، إلا أنه كان بارعاً في تحريك

الكؤوس، لابد أنه فعل ذلك مراراً.

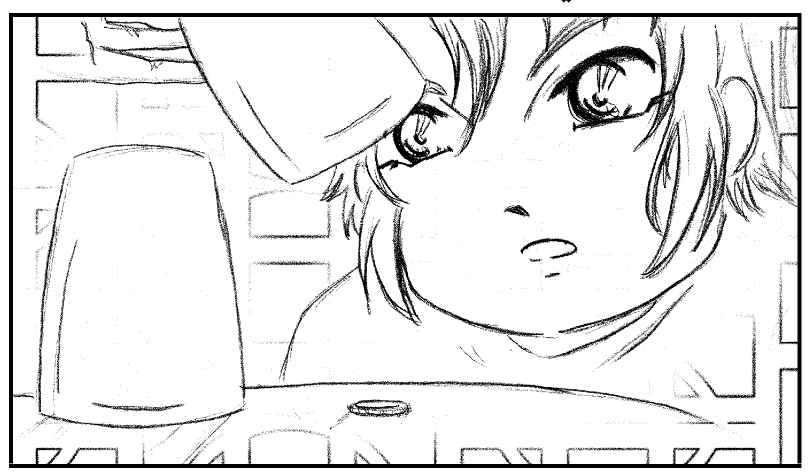
حرك الكؤوس، هذه المرة كنتُ شديد التركيز، يمين، وسط، يسار، يمين... توقف، إنها في اليمين.

كشف الحاجّ عن الكأس ولكنه كان فارغاً! ثم كشف عن الكأس على اليسار فكان القرش هناك.

لا أصدق ما أرى، قلتُ: كيف تفعل ذلك؟

ولكنه لم يكن ليكشف السر بهذه السهولة، مرة ثانية، يمين، وسط، يمين، يسار، يمين... إنها في اليمين!

أخطأت، إنه في الوسط!



نفد صبري، قلتُ: أريد أن أتعلم ذلك، علّمني كيف تفعل ذلك!

ابتسم وحمل الكأس يقول: القرش لا يظل في الكأس، إنه ينتقل

من كأس إلى آخر، ركّز.

ينتقل من كأس إلى آخر! لقد كنتُ أركز في الكأس.

يمين، وسط، يمين، وسط، يسار... أوه، لقد أبطأ الحاجّ من الحركة قليلاً حتى أنتبه، القرش انتقل من الكأس في الوسط إلى الكأس في اليسار الذي انتقل بدوره إلى الوسط، إذن القرش ما يزال في الوسط! ثم يسار!

قلتُ: إنه في اليسار!

قلب الحاجّ الكأس فكان القرش هناك، فرحتُ كثيراً لتعلم ذلك، وأحببتُ أن أجرب.

ركز الحاجّ في الكؤوس، قمتُ بتبديل الكؤوس أحاول أن أسرع في ذلك، ولكنني لم أفلح، حزر الحاجّ مكان القرش بسهولة.

حاولتُ تبديل القرش بين الكؤوس، فسقط القرش على الأرض! ضحك الحاجّ غانم، فلم يكن ذلك سهلاً، عليّ أن أتدرب حتى أكون مقنعاً!

صبر الحاجّ غانم، فقد كنتُ سعيداً بما أفعل، وقد تحسن مزاجي، ربما بدأتُ أنسى ما جئتُ من أجله اليوم.

قضيتُ وقتاً طويلاً أقلب الكؤوس، ولكن الحاجّ غانم كان ماهراً في اللعبة، لقد حزر مكان القرش كل مرة!

تعبتُ، أريد أن أتابع ذلك في المنـزل، أعـاد الحـاجّ الكـؤوس إلى مكانـها، وسألني إذا ما كنتُ أريد الاطمئنان على سحاب.

كانت الشمس قد أشرقت، وخرجتُ مع الحاجّ غانم إلى الحديقـة حيث يجلس سحاب قرب طعامه المخصص، ما يزال الضماد عليه.

ما إن اشتم رائحتي حتى ركـض تجـاهي، قفـز مرحبـاً، فربّـتُّ عليه، ولكنني تذكرتُ برؤيته ما جرى، وشعرتُ ثانية أنه كان أشجع مني، وقد خسرتُ القطيع بسبب جبني وقلة حيلتي.

وكأنما قرأ الحـاجّ غـانم مـا أفكـر فيـه في وجهـي، فقـال: هـذه مشيئة الله يا أحمد، لم تكن قادراً أن تفعل أكثر من ذلك.

لم أكن لأفعل أكثر من ذلك! هل هذه كلمات حسنة؟

ظننتُ أنه وقتٌ مناسب لطرح ما حضرتُ من أجله، رغم ذلـك لم أكن لأنظر مباشرة في عين الحاجّ غانم، بقيتُ أنظر إلى سـحاب وقلـتُ: أيها الحاجّ، هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟

رحّب بذلك، فسألتُ: ما هو الإيدز؟

كنـتُ حريـصاً ألا أنظـر في عينيـه، ولكـنني كنـتُ أريـد أن أرى تعبير وجهـه، فاسترقتُ لمحة خاطفـة لأرى علامـات العجـب ترتـسم على وجهـه.

عدتُ أنظر إلى سحاب، وبعد تفكير أجاب: إنه... مرض سيء! لماذا تسأل عنه؟

لم أكن قد حضّرتُ الإجابة عن هذا السؤال مسبقاً، فارتبكتُ كثيراً، بماذا أجيب؟ صبي يعيش في منزل منعزل، ولا يذهب إلى المدرسة، فمن أين له بالأفكار؟

قلتُ: تذكرته في إحدى الحصص المدرسية السابقة، كان علينا أن نحضّر عنه، ولكنني انشغلتُ حينها، ولم يتسنّ لي وقت بعدها.

لا يبدو أن إجابتي كانت مقنعة، ولكنه فكّر ليجيبني بما يتناسب وسني، فقال: إم... إنه مرض نقص المناعة، ما أعرفه أنه يجعل الإنسان عرضة للأمراض أكثر من أي شخص آخر، ويجعل جسده ضعيفاً في مقاومة تلك الأمراض.

اختصرتُ السؤال، فسألتُه مباشرة: هل هو مرض مميت؟

هنا كنتُ أنظر إلى عينيه مباشرة، لا أستطيع تجاهل هذه الإجابة المهمة، فنظر إليّ بعيون حائرة لاهتمامي، ولكنه أجاب: نعم، لم يتوصل العلم حتى الآن إلى دواء شاف.

ها هي الحقيقة حاضرة أمامي، لماذا أكون ضحية مرض كهذا؟ ألا تكفي المصائب التي تحل بنا؟

قاطع الحاجّ غانم أفكاري يسألني: هل أنت بخير؟

يبدو أن الشحوب كان بادياً عليّ، أشرتُ بالإيجاب وابتسمتُ قدر ما استطعت، يا لها من ابتسامة ترتسم على وجه طفل يصارع الموت! ولكن ما تزال لديّ أسئلة، قلتُ: هل هو مرض معدٍ؟

قطب الحاجّ حاجبيه وكأنه يتذكر علماً مضى عليه عدة قرون، ولكنه أجاب: نعم، ينتقل عبر الدم.

سألته على الفور: ماذا يعني هذا؟

باختصار، هل هالة في خطر أم لا، كان سؤالي، ولكنني لم أستطع أن أنطق به، فأجاب الحاج غانم: يعني أن العدوى منه ليست بالأمر السهل، إنه لا ينتقل بالملامسة أو عبر الهواء، ينتقل بالإبر ونقل وحدات الدم، لماذا تسأل؟

قلتُ على الفور: فقط تذكرتُ شيئاً كهذا في المدرسة ليس إلا!

حاولتُ أن أؤكد صدق كلامي، ولكن كيف لصوتي أن يصدق في كذب واضح! المهم أنني حصلتُ على ما أريد، المهم أن هالة في أمان إلى حد ما.

تذكر الحاجّ غانم شيئاً، فنهض وأخذني إلى داخل المنزل، وفتح خزانة قديمة ليخرج منها دفتراً عتيقاً.

أمسك الدفتر بكلتا يديه، قرّبه مني وهو يقول: وجدته بين الحاجيات عندما كنتُ أنظف، أظن أن أربع سنوات قد مضت عليه، احتفظتُ به للذكرى إلى أن نسيته، أظن أن هذه هي اللحظاتُ التي نخبئ فيها ذكرياتنا من أجلها.

ناولني الدفتر، إنه دفتر رسم للأطفال، أعني بذلك ما دون الخامسة، أشكال بسيطة من نجوم وشمس وقمر، كلها ملونة بأسلوب رديء، أعني بالتلوين بعض الخربشات هنا وهناك في الصفحة لا تمتّ للرسمة بصلة!

ابتسم الحاجّ غانم وقال: ربما لا تذكره، فقد جلبَته هالة معها منذ أربع سنين لتخبئه عندي، كانت تخشى على الدفتر من أن تفسده.

ابتسمتُ وقد فهمتُ ما يرمي إليه، كان تلوين هالة أسوأ من أن يفسده أحد حتى لو كنتُ أنا!

تذكرتُ حينها أنني كنتُ أنوي إحضار هالة إلى هنا، ستسر بذلك كثيراً، وهذا الدفتر سيبهجها، ربما تذكرته.

نظرتُ إلى الحاجّ غانم وقلتُ: أريد أن أحضر هالة إلى هنا، ولكنني لم أجد الوسيلة لمغافلة زوجة أبي عنها.

ابتسم الحاجّ غانم وقال: هناك حل لكل مشكلة.

سألته: هل لديك الحل؟

أجاب: لم أقل أن لدي أنا الحل، بل قلتُ إن لكل مشكلة حلاً.

سألتُ: وما حل هذه المشكلة؟

فكّر الحاجّ غانم قليلاً، كان يبدو أنه يعرف حلاً للمشكلة، ولكنه يريدني أن أفكر بنفسي، وحاول أن يوصلني إلى طرف الخيط ليس إلا، فقال: حاول أن تغير من طريقة تفكيرك، فأنتَ تريد لهالة أن تلتقي بي.

أن تلتقي بالحاجّ غانم، أن أجلبها إلى هنا... أن تلتقي بالحاجّ غانم، أن أجلبها إلى هنا... أن تلتقي بالحاجّ غانم، حتى ولم لم أجلبها هنا! لمع الحل سريعاً في مخيلتي، إذا لم أستطع جلب هالة إلى الحاجّ غانم، فإنني قادر على جلب الحاجّ غانم إلى هالة!

لمح الحاجّ غانم الحل في عيني، فابتسم وجلس على أريكته، كانت المشكلة الوحيدة هي في كيفية نقل الحاجّ غانم إلى هالة، عندها سألتُ الحاجّ على الفور: هل لي ببعض الأخشاب؟

أشار الحاجّ بالإيجاب، بل قادني إلى عربة صغيرة قديمة تحتاج لبعض الإصلاحات الطفيفة، أستطيع فعل ذلك، أستطيع.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والعشرون | هالة

أذكر العرق الذي كان يتصبب من جبين والدتي أثناء العمل، أذكر أنه كان ندياً جميلاً وصافياً، كانت سعيدة ومثابرة.

اليوم تتصبب مني ذرات العرق، ولكنها تختلف عن عرق والدتي، فعرقي اليوم بشقائي وتعبي، بعذابي وإهانتي، عرقي اليوم مالح ومتسخ.

اليوم فقط أدركتُ أن لعرق الإنسان معالم، اليوم فقط تمنيتُ لو جربتُ العرق الندي، المشوب بحب العمل والإخلاص فيه.

مر اليوم طويلاً، عمل متواصل بلا انقطاع، كنتُ أرغب في أن أعود إلى حجرة أحمد لأتأكد من عودته، ولكن كان عليّ ألا أشعرها أن هناك خطباً ما، أو أن أحمد لم يكن هناك.

هكذا كنتُ مضطرة للعودة إلى حجرة أحمد في المساء، والتأكد من وجوده بعد غروب الشمس، فتحتُ باب الحجرة بهدوء، وقد كان قلبي يخفق بشدة، لستُ أدري بم كنتُ أفكر، إذا لم أجده هنا فماذا أفعل؟

هل حدث له مكروه؟ هل هرب من المنزل وتركني وحدي؟ هل ضاقتْ به الدنيا والعيش هنا إلى درجة لم يعد يفكر فيها بما يفعل؟ كل

هذه أسئلة كانت تدور في رأسي لحظة فتحي الباب، ولكن حمداً لله لم أكن مضطرة للإجابة عنها، حيث كان أحمد يجلس هناك، على فراشه كما يفترض له أن يكون.

بعد أن تأكدتُ من إغلاق الباب خلفي، بعد أن صرنا وحدنا سألته: أين كنت؟

اعتذر على الفور: آسف أنني سببتُ لك القلق، هل علمتْ زوجة أبي بغيابي؟

أجبتُ: لا، لم تعلم، ولكنني كنتُ قلقة جداً.

ابتسم معتذراً، ولكن عينيه كانتا تلمعان سعادة، تراه أين ذهب؟

جلستُ إلى جانبه أسأله: لماذا لم تخبرني إلى أين ستذهب؟ لماذا اختفيتَ فجأة؟

تغيرتْ ملامح أحمد، لقد تذكر شيئاً سيئاً، ولكن بسرعة عاد يبتسم، وقال: لقد اطمأننتُ على سحاب.

سألته: أين هو؟

أجاب: لقد تركته عند الحاجّ غانم ليعتني به، لقد آذته الذئاب، ولكنه يتحسن.

آه، الحاجّ غانم، مر زمن طويل على لقـائي بـه، سـألته: كيـف حال الحاجّ؟ هل صحته على ما يرام؟

أجابني مؤكداً: إنه في أحسن حال، ودائم السؤال عن أحوالك.

انقـبض وجهـي، أحـوالي لـيس هنـاك أسـوأ منهـا، ولكـنني اصطنعتُ ابتسامة تسعد أحمد، وقلتُ: لقد اشتقتُ له.

فقال: هو يبادلك الشعور نفسه.

كان هذا جميلاً، أن أعرف أن أحـدهم، في مكـان مـا، في ظـروف أخرى، في عقد مختلف، يفكر بي، ويسأل عـن أحـوالي، أشـعر أنـني بدأتُ أنسى كيف يبدو، هل مر زمـن طويـل علـى آخـر لقـاء لنـا؟ هـل تضاعفت التجاعيد على وجهه؟ هل ازدادت أصابعه نحولاً؟

ما بالي، لربما كنـتُ فقـط أصـف نفـسي، فالحـاجّ غـانم يجلـس كريماً في منزله، بينما نعاني نحن طفولة قاسية.

قاطع أحمد أفكاري وسأل: كيف كان يومك؟ هل قستْ عليك؟

أجبتُ: ليس أكثر من العادة.

سأل: ألم تدخل غرفتي؟

ابتسمتُ وقلتُ: أخبرتها أنك تتقيأ بشدة، فأنفتِ الدخول.

ضحكَ أحمد، لستُ أدري كيف تصرفتُ بسرعة بديهـة، أظـن أن

عقلي ما يزال يعمل بشكل جيد.

عندها أخرج أحمد من معطفه دفتراً عتيقاً، وقدّمه إليّ، كان الدفتر مألوفاً إلى حد ما، أمسكته وتصفحته إلى أن تذكرت، إنه دفتري، لقد كنتُ ألوّنه، نظرتُ إلى أحمد الذي أوضح على الفور: وجده الحاجّ غانم، لقد كنتِ تخفينه عنده خوفاً من أن أفسده.

كانت مفاجأة مضحكة حقاً، احتفظ به الحاجّ غانم! لابد أن منزله مليء بما هو عتيق!

تصفحتُ الصفحات مراراً وتكراراً، وبدأتُ أشعر بغصّة في حلقي، بعض الرسمات كانتْ متقنة أكثر من غيرها، كان من الواضح أن لمسات والدتي كانت فيها، ولكن قبل أن تنزل دموعي استدركتُ وقلتُ ضاحكة: كنتُ أخشى عليه من أن تفسده.

ضحك وقال: هل تعترفين الآن أنك كنتِ تظلمينني؟

ضحكتُ وأنا أحدق في الرسمات، نظرتُ إلى أحمد وقلتُ: لقد كان تلويني رديئاً! ظننتُ أنني كنتُ أُحسنُ صنعاً!

ضحك وقال: أنتِ مدينة لي باعتذار.

أشحتُ برأسي وقلتُ: لابد أن ألوانك كانت رديئة أكثر من ألواني.

تفاجأ أحمد بإجابتي: رديئة أكثر! ماذا كنتُ أفعل؟ أمزق الأوراق!

ضحكتُ وقلتُ: ربما.

أغلقتُ الدفتر الثمين، ووضعته جانباً، وتناولنا الطعام، وتحدثنا حديثاً أخوياً لطيفاً، ثم نظر أحمد إلى ثلاث كؤوس كنا قد انتهينا من شرب ما فيها، فأخذها وقلبها، ثم فتش حوله إلى أن وجد زراً لإحدى قمصانه قد أفلت، أخذه ووضعه تحت إحدى الكؤوس.

نظرتُ إليه متعجبة: ماذا تفعل؟

أجاب: لقد علّمني الحاجّ غانم هذه اللعبة، تابعي أين يكون الزر.

بدأ أحمد يحرك الكؤوس، ينقل إحداها مكان الأخرى، ثم توقف وسألني: أين الزر؟

شعرتُ ببعض السخف في الأمر، وقلتُ بوضوح: إنه في الوسط!

قلبَ أحمد الكأس فكان الزر تحته، ولكنه قال: سأسرع أكثر.

أخفى الزر تحت الكأس من جديد، ثم بدأ يقلب بين أماكن الكؤوس، هذه المرة أعترف أنه كان أسرع، ولكن ذلك ما يزال سهلاً، فقد حزرتُ مكان الزر للمرة الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة على التوالي!

تنهد أحمد وقال: عليّ أن أتدرب على ذلك أكثر، كان الحاجّ غانم بارعاً به جداً.

سألته: ألم تكن تحزر مكان الزر؟

أجاب: لو شاهدت الحاجّ غانم يلعب، لما كنتِ حزرتِ أين الزر.

لم أكن لأصدق شيئاً كهذا إلا إذا عاينته بنفسي، فقد ظننتُ أنها لعبة سهلة إلى حد كبير!

أخيراً أعدنا الكؤوس إلى مكانها، وخيطتُ الزر في القميص، ثم خلدنا إلى النوم، ليبدأ من بعد ذلك يوم شاق آخر في دوامة اللانهاية.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والعشرون | أحمد

بدأ يومها الشاق منذ الفجر، فقد دخلتْ زوجة أبي الغرفة بعنف، وصرختْ تأنبها على طول نومها وثقله، وكسلها في العمل وضعف إنتاجها في الحقل، وما إلى ذلك من حديث، إلى أن شدتها خارج الغرفة لتبدأ العمل.

تساءلتُ إلى متى ستتجاهلني؟ إلى متى ستسمح لي بالبقاء في الفراش؟ أم أنها قد اكتفت من صبي لن يعيش طويلاً؟ وإلى متى سأصبر على معاملتها السيئة لهالة؟ ولكن اليوم لديّ ما أقوم به، ولن يثنيني أحد.

نهضتُ من الفراش مسرعاً إلى منزل الحاجّ غانم، كانت العربة القديمة أمام الباب، لم يبق سوى بعض التعديلات الطفيفة عليها لأضمن أن تحمل الحاجّ غانماً ذهاباً وإياباً.

شرعتُ في العمل على الفور، فسمع الحاجّ غانم طرقات المطرقة على الخشب القديم، فخرج ليرحب بي.

توضأ الحاجّ غانم من مياه الحقل، واستعد لصلاة الفجر بينما كنتُ مستهماً بالعمل، فاتجه إليّ ليعرض عليّ دقائق قصيرة من الراحة، وأن نصلي الفجر معاً.

شعرتُ ببعض الإحراج، ربما اختلط بالشعور بالذنب، فقرأ الحاجّ غانم ما ارتسم على وجهي وسألني: ما الأمر؟

طأطأتُ رأسي وأجبته قائلاً: لا أذكر آخر مرة صليتُ فيها.

ابتسم الحاجّ غانم وقال: في ظروف كظروفكم، لا أظن أن أحداً يحثكم على الصلاة.

طلب إليّ أن أتوضأ، ورافقني ليساعدني، فقد كنتُ قد نسيتُ ما تعلمناه في المدرسة من خطوات الوضوء، ومن تسلسل بين الأعضاء، كان ذلك معقداً بالنسبة لي، خصوصاً أنني لم أكن أقوم به بانتظام.

ثم استقمنا باتجاه الكعبة، يقف إلى شمالي وأقوم بمتابعة كل حركة يقوم بها، وكل كلمة ينطق بها، إلى أن أتممنا ركعتي الفجر.

سلّم الحاجّ عن يمين ويسار، ثم نظر إليّ، في سكون الفجر وهدوئه نصحني بكلماتٍ لن أنساها ما حييتُ: يا بني، إذا ما ظلمتك الحياة، فالبشر ظالمون، وإذا ما أنصفتك الحياة، فالله عادل، ومن عدله تعالى أن ينصف المظلوم ولو بعد حين، فلا تيأس، الناس كلهم إليه تعالى، فإذا استعنت فاستعن بالحي الذي لا يموت.

كان كلاماً جميلاً، ليتني أسمعه كل يوم، لربما عزّاني بفقدان والدتي، وبقسوة والدي، وبخبث زوجته.

تابعتُ العمل بجد، وكلي أمل أن أنهي تجهيز العربة اليوم قبل الظهر حتى أستطيع جلب الحاجّ غانم إلى المنزل وأعيده قبل المغيب.

لم أكن قد صنعتُ عربة من قبل، ولم أكن أعلم بتفاصيل صناعتها، ولحسن حظي أن العربة كانت بحاجة إلى بعض الترميم ليس إلا، ولم تكن بحاجة إلى دراية واسعة عن العربات.

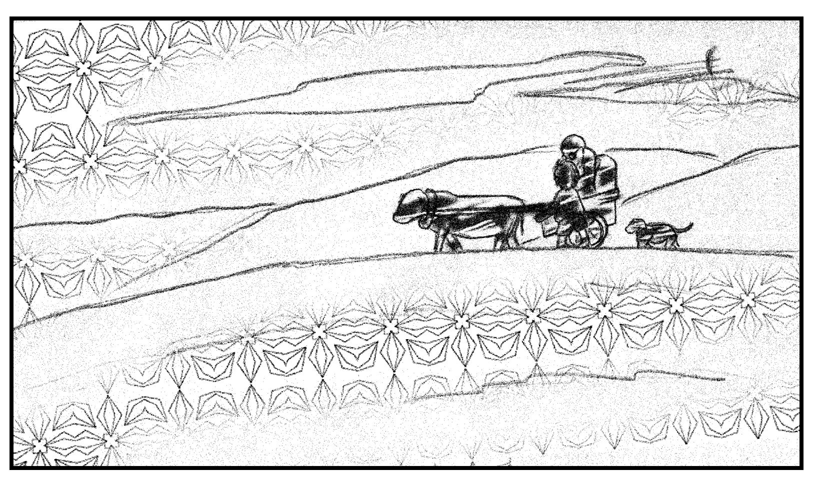
ثبتُّ العجلات بشكل آمن، وجهزتُ المقعد بشكل مريح، كما أنني استبدلتُ المقابض الطويلة التي تُربط بالحيوان الجارّ للعربة، فباتت أكثر صلابة.

أظن أنني انتهيتُ، والشمس باتت في كبد السماء، والجو بات حاراً رغم أنه الشتاء، ياله من يوم مناسب للرحلة.

صليتُ الظهر مع الحاجّ غانم، وتناولنا غداء شهياً، ثم بدأنا المشوار.

ربطتُ العربة ببقرة الحاجّ غانم، وبدأتُ أقودها إلى حيث المنزل، كما تبعنا سحاب، فقد استعاد صحته بعون الله.

كانت رحلة مسلية، حيث تحدثتُ مع الحاجّ في أمور عدة، ونصحني بنصائح جميلة كنتُ أرغب في تدوينها، كما أنه قص عليّ قصصاً، وطرح عليّ أسئلة جعلت الوقت يمر بسرعة.



وصلنا المنزل قبل المغرب، وأوقفتُ العربة تحت شجرة تبعد عن المنزل مسافة لا يلحظها أحد، وذهبتُ وحدي حتى أنادي هالة.

كانت هالة في هذه الأثناء تمسح زجاج النوافذ، لحسن حظي أنها كانت في الخارج، أشرتُ إليها بهدوء أن تحضر معي، وأن تترك العمل لدقائق.

كانت الحيرة بادية عليها، وكانت الأسئلة تكاد تتطاير من عينيها، ولكنني لم أترك لها مجالاً، فركضتُ معها إلى حيث تركتُ الحاجّ غانم.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والعشرون | هالة

لا أحب الاختفاء، إنه يولد فيّ الخوف، لا أريد أن أستيقظ، لا أريد أن تغيب أمي عن ناظري.

كنتُ كلما استيقظتُ من النوم أبحث عنها، لقد نمتُ بجوارها، فلماذا تتركني في الصباح؟

كنتُ أقلق كل صباح، وكأنني كنتُ على دراية أن اليوم الذي أفقدها فيه إلى الأبد آت!

هذا وكما لا أريد أن أستيقظ وأجد سرير أحمد فارغاً.

لم أستيقظ، إنما أوقظتُ، فقد دخلتْ زوجة أبي، وقامتْ بإيقاظي بكل قسوة، شعرتُ بشعري يُجدّ، وبثيابي تُشدّ، وكان صوتها مرتفعاً بالتأنيب والصراخ قبل أي شيء، ووجدتُ نفسي أخرج من الغرفة لا أعرف كيف، ولكن كل ما أعرفه أن أحمد كان هناك.

بدأ العمل الذي لا ينتهي، تنظيف المنزل، تحضير الطعام، العناية بالحقل وجلب المياه، كل ذلك دون استراحة ودون طعام.

كان كل تفكيري هناك، في الغرفة، هل غادر أحمد؟ وهل سيستطيع المغادرة اليوم دون علمها؟ وهل ستتركه اليوم دون عمل؟

أسئلة لم أستطع الإجابة عنها طول اليوم، فقد تأخرتُ في

العمل، وعليّ إنجاز الكثير قبل المغيب.

أثناء تنظيفي للزجاج اقترب أحمد مني يلهث، كان العرق يتصبب منه بوضوح، يبدو أنه قد سار مسافة طويلة!

كدتُ أنطق لأسأله أين كان، وماذا فعل، ولماذا هو بهذه الحال، وهل بعثته زوجة أبي للعمل، وهل كان عند الحاجّ غانم؟... ولكنه لم يترك لي فرصة، فقد أشار إليّ بالتزام الصمت، والسير معه على الفور.

التزمتُ الصمت، وركضتُ معه إلى حيث قادني، إلى شجرة بعيدة عن الأنظار، هناك تحت الشجرة يوجد شيء ما! عربة لم أرها من قبل، تبدو قديمة تقودها بقرة! لا أذكر أن لدينا أبقاراً، بل كان البقر يتواجد عند الحاجّ غانم وحده.

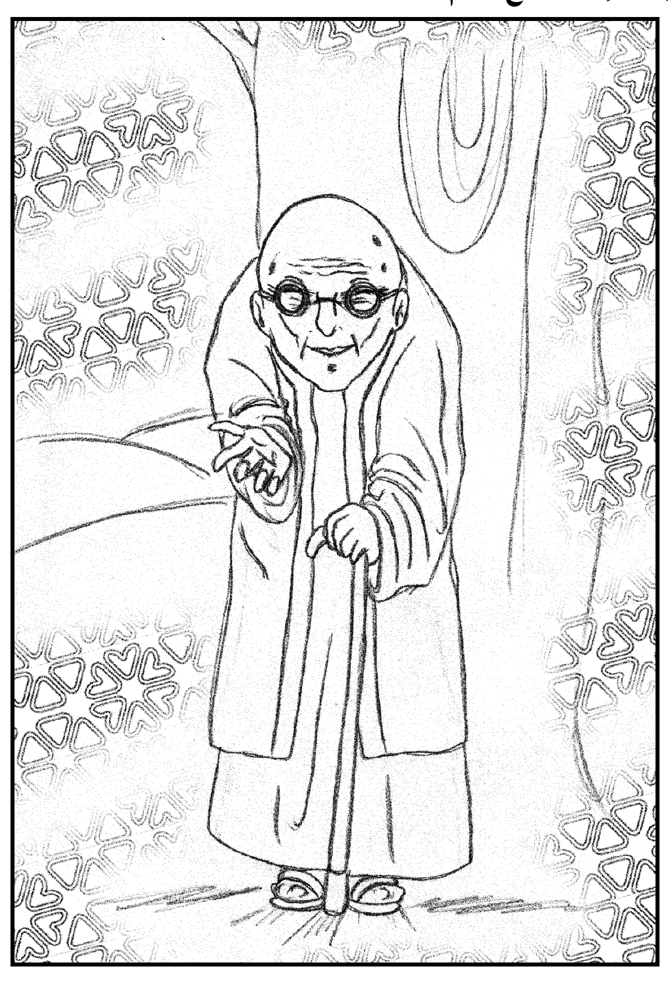
هناك حيوان يقترب راكضاً إليّ، إنه... ثلج!

قفز ثلج بين أحضاني، وسعدتُ جداً لرؤيته بخير، كان دافئاً وناعماً.

ولكن أحمد شدّني لأتابع السير، فهناك شخص ما يقف إلى جانب العربة، لا يمكن أن أصدق ذلك، فهو لم يحضر إلى هنا من قبل، بل إن صحته ولياقته تخونانه عن التحرك خارج المنزل مسافات

قصيرة، فكيف له أن يكون هنا؟

إنه هو، بظهره المقوس، وعصاه التي يتكئ عليها، إنه هو بقوامه الهزيل ونظاراته السميكة، إنه هو بابتسامته العذبة ونظراته الحنونة، إنه الحاجّ غانم!



لم أفكر، ولم أشعر بقدمي تهوي إليه، كنتُ قد ركضتُ لأرتمي في أحضانه بلا تردد، إنها ريح الأمل عادتْ بي إلى أيام السعادة، تلك الأيام الجميلة التي كنا فيها معاً لا نفكر في شيء، ولا نخاف المستقبل، نلهو ونلعب، ثم نعود متعبين إلى الفراش الدافئ لنستقبل يوماً جديداً من السعادة والمرح، أيام كنا محظوظين فيها دون أن ندرك.

ها هو حضن الحاجّ غانم يستقبلني مستبشراً، مشتاقاً، لا يزال في هذه الدنيا من يذكرنا، لا يزال في هذه الدنيا من يحبنا.

مرر يده على شعري، وربت على كتفي، كانت لمسته حنونة، فلم أسيطر على دموعي، لقد بكيتُ، بكيتُ بحرارة، بكيتُ سعيدة وحزينة في الوقت نفسه، سعيدة بتذكر السعادة، حزينة بفقدانها.

لا أريد أن تنتهي هذه اللحظة، أريدها أن تستمر إلى الأبد، أريده أن يعيش معنا، وأريد أن أعيش معه، لماذا لا يتحقق لنا مثل هذا المطلب البسيط؟

رفع الحاجّ وجهي، ومسح دمعتي، وقال بصوتٍ حنون: كيف حالك يا صغيرتي؟

ولكن غصة في حلقي غلبت على صوتي، كنتُ أريد أن أقول الكثير، كنتُ أريد أن أشكو، أن أصرخ، أن أبكي، لستُ أدري كم من

الوقتِ أحتاج، لستُ أريد أن أتركه، أريد أن أظل ممسكة به.

ابتسم وقال: أعلم، لقد تعبتِ كثيراً، وصبرتِ كثيراً، وبكيتِ كثيراً، وظُلمتِ كثيراً.

لقد نطق بالحروف التي علقت على شفتي، قال عني ما كنتُ أحمله ثقيلاً على صدري، كم بات خفيفاً ولطيفاً الآن على شفته.

تابع يقول: كم أنا سعيد برؤيتك، فقد افتقدتُ الأيام التي كنتم تلعبون فيها في حديقتي، وتزينون حياتي.

قلتُ بصعوبة: أريد تلك الأيام.

عانقني الحاجّ معزياً، وقال: أعلم أنها كانت أجمل أيام، والحمد لله عليها كثيراً، ولكن أبشري يا هالة بأيام سعيدة.

هذه كلماتٌ غريبة، كيف يتوقع من طفلين في منزل منعزل، في مكان ناء من هذه الدنيا، فقدا الجذر الذي يربطهم بالحياة، يتجرعون السم كل يوم، كيف يبشرهم بأيام سعيدة؟

أشار إلى أحمد ليقترب، وضمه أيضاً إلى صدره بجواري، ثم قال: أعلم ما تعانيان، وأعلم أنكما فُجعتما بفقدان والدتكما الطيبة المخلصة الحنون، ولكن تذكرا أنه إلى جانبكما من هو أحنّ وأرأف عليكما منها، إنه الله ربكما، فلا تنسوه أبداً.

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي، كما شعرتُ أحمد يرتجف مثلي، وتابع الحاجّ قائلاً: قرّبَ والدتكما إليه، وهو حنيّ عليها، وسيقربنا جميعاً إليه يوماً ما، وهو الحنيّ علينا جميعاً.

نظرتُ إلى الحاجّ غانم وسألته بقلب طفل صغير لم يخبر من الحياة إلا القليل: فلماذا تحوم حولنا المتاعب؟ نحن لم نفعل ما يستحق ذلك!

ولكنه مسح وجنتي وقال: العبرة في الخواتيم يا بنيّتي، العبرة في الخواتيم.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والعشرون | أحمد

رحلة الإياب مع الحاجّ غانم كانت ممتعة، كنتُ سعيداً جداً بما فعلتُ من أجل هالة، وكان الحاجّ سعيداً برؤيتها كثيراً.

تحدثتُ مع الحاجّ طويلاً، ولم أشعر بنفسي إلا وقد وصلتُ منزله.

كانت الشمس قد غربت، وعليّ العودة إلى المنزل سريعاً، فودعني الحاجّ غانم بابتسامته المعروفة، وتركتُ العربة عنده، وشكرته على العناية بسحاب الذي بقي في المنزل مع هالة، وعدتُّ جرياً إلى المنزل.

وصلتُ المنزل وقد كان كل شيء هادئاً، دخلتُ غرفتي فوجدتُ هالة تجلس على سريري، يبدو أنها كانت بانتظاري.

كانتْ هادئة مطرقة في التفكير، وكأنها باتت في عالم آخر، عالمها الخاص الذي لا يدركه أحد سواها، ذكرياتها، أحلامها، آمالها، كلها كانتْ تلوح في عينها، ولا يستطيع أحد قراءتها وفك ألغازها.

نظرتْ إليّ في سكون، ورغم أن ابتسامتها كانت غائبة، إلا أن السعادة كانتْ تحوم حول هدوئها وهي تقول: شكراً، لقد كانتْ أغلى هديّة.

كاد قلبي يطير فرحاً، مر زمن لم أحقق فيه ما سعيتُ من أجله، لقد أدخلتُ السعادة في قلب هالة كما أردتُّ، لقد جلبتُ لها قلباً حنوناً بعد وفاة والدتي، لقد شاركتها فرحتي بزيارة الحاجّ، ولم أعد أشعر بالذنب لذلك.

غادرتْ هالة الغرفة لتنام في غرفتها، وتتركني أنام بعد يوم ظنّتْ فيه أنني متعب وأحتاج قسطاً من الراحة، ولكن الحقيقة أن النوم كان أبعد ما يكون عن عيني، وأن الراحة كانتْ حاجتها هي، فقد كانت تشقى في العمل أكثر مني.

وضعتُ رأسي على وسادتي، وكنتُ في نشوة السعادة لا أريد أن أفارقها بالنوم، أريد أن أعيشها أطول وقت ممكن، أريد أن أشعر بكل نبضة في قلبي، أريد أن أتذكر السعادة.

ولكن أفكاراً غريبة باتت تحوم في رأسي، تنازع سعادتي، أين هي من كل هذا؟ هل يُعقل أن زوجة أبي تتركني أستريح لعدة أيام؟ هل يُعقل أنها لا تستعبدني كما تفعل بهالة؟ هل يُعقل أن حقدها يظهر على هالة دوني؟ هل اكتفتْ بالحقيقة أنني صبي لن يعيش طويلاً؟ أم هل تخاف من العدوى فتتجنبني؟

أفكار كثيرة دارتْ في مخيلتي، ولكنني أخيراً غفوتُ دون أن

أدري، وعند الصباح كانتْ قد أيقظتني للعمل قائلة: هل تظن أن المرض سيمنعك من العمل؟ ستعمل إلى آخر رمق في حياتك!

هكذا انقضتْ لحظات سعادتي، وهكذا أُجيبَ عن أفكاري، ليتني لم أنم الليلة، ليت سعادتي طالت ولو لدقائق.

نهضتُ أشعر أنني عدتُ أياماً إلى الوراء، وكأن حلماً كان وانقضى، وعدتُ إلى العمل الشاق في الحقل، طبعاً لم تكن لتتركنا نعمل سوياً، فكان على هالة أن تعمل في المنزل أو في الساحة الأمامية، بينما أعمل في الحقول بعيداً عنها.

رغم ذلك فلم يكن أذاها كبيراً، لاحظتُ أنها باتت كثيرة الخروج من المنزل، وبات من الممكن أن نجلس أنا وهالة معاً بعض الوقت وقد غفلتْ عنا! ماذا تفعل يا ترى؟ وما الأمر المهم الذي شغلها عنا؟

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والعشرون | هالة

كانت والدتي تساعد الحاجّ غانم في تنظيـف منزلـه، حيـث كـان شيخاً كبيراً عاجزاً عن القيـام بـالكثير مـن الأعمـال المنزليـة المرهقـة، كانت تكنسه، وتمسح زجاجـه، وترتـب الأطبـاق المتنـاثرة، ولم تكـن تأخذ على ذلك أي أجر.

أتراه يعتني بمنزله الآن، أم أن الأطباق باتـت دائمـاً مبعثـرة في المنزل؟ هل أرض المنزل بحاجة إلى تنظيف؟ هل الزجـاج نظيـف؟ هـل بات يفعل ذلك بنفسه أم أنه قد ترك الزمان يعيث في المنزل؟

أتمنى لو أستطيع الذهاب إلى منزلـه الـصغير، لقـد كـان لطيفـاً، أريد أن أساعد في تنظيفه، أن أجلـس ثانيـة إلى الحـاجّ، أن أغـادر هـذا المنزل!

نـهضتُ في الصباح قبل أن تدخل غـرفتي، وأطعمـتُ ثلجـاً الـذي اشتقتُ له جداً، ثم رأيتُ أحمد قد عاود العمل، فعلمتُ أن كل شيء قد عاد كما كان، وتلك أيام قليلة معاً قد انقضتْ.

كان عمل أحمد في الحقول، بينمـا كنـتُ أعمـل في المنـزل، لـذلك كان من الصعب أن نلتقـي أو نتحـدث، وكـأن كـلاً منـا يـسكن في قريـة مختلفة.

ظننتُ أن الوضع سيكون أسوأ مما هو عليه، ولكن لعجبي فقد التقيتُ مع أحمد مراتٍ عدة، ذلك لأنها باتت كثيرة الخروج! لستُ أدري إلى أين تذهب، لم تكن لتفصح عن ذلك، ولم نكن نعلم بخروجها إلا وقد رأيناها تغادر بأعيننا.

يوم، ثم اليوم الذي يليه، والذي يليه، إنها تخرج بشكل منتظم، هل وجدتْ عملاً ما؟

في غضون أسبوع من هذه الحال قدم شرطي إلى منزلنا بينما كنتُ أنظف الموقد، فتحتْ له الباب، وتحدثتْ إليه عن أمور لم أفهمها، شيء يتعلق بقضية أوبمحكمة، شيء مفقود!

قدّم لها الشرطي صندوقاً، ووقّعتْ على استلامه، وقال شيئاً عن إلقاء القبض على السارق، ولكنني دُهشتُ عندما سمعته ينطق الاسم الذي لا أشك أنني سمعته خطأَ، غانم عبد القادر السعيد!

توقفتُ عن العمل، أغلقتِ الباب ونظرتْ إليّ، كنتُ صامتة أحدق فيها أريد أن أفهم ما يجري، ولم تكن لتبخل عليّ بخبر يجعل من حياتي جحيماً مطبقاً، أشارتْ إلى الصندوق الذي أعاده الشرطي إليها للتو، وقالتْ: لقد سرقه الحاجّ غانم.

فتحتِ الصندوق، فكان فيه كل ما تملك من مجوهرات، نظرتْ

إليّ وعلى وجهها ابتسامة خبيثـة تقـول: عنـدما قـدم لزيارتنـا، قـام بسرقتنا.

صرختُ قائلة: الحاجّ غانم لا يفعل ذلك!

ولكنها ضحكتْ وقالتْ: يبدو أن الشرطة كان لها رأي آخر، فما معنى أن تكون جواهري في منزله بعد أن حضر لزيارتنا؟

لا، لا أصدق ذلك، لقد كانـت تعلـم بحـضور الحـاجّ إلينـا، لقـد رسمتْ خطة محكمة خبيثة للتخلص منه، لإزالـة آخـر شـعلة سـعادة بقيتْ في حياتنا! كيف تفكر؟ كيف لها أن تمكر هكذا؟

خرجـتُ مـسرعة لا أصـدق مـا جـرى، واتجهـتُ إلى أحمـد في الحقل، وطلبتُ إليه أن نذهب إلى منزل الحاجّ غانم على الفور.

لم يفهم أحمد ما أرمي إليه، ولم أقم بشرح شيء له، بل شـددتُ يده أطلب إليه أن يركض معي إلى منزل الحاجّ غانم الآن.

ترك أحمد العمل يجهل تماماً ما جرى، ولكنه ركض إلى منـزل الحاجّ غانم معي، وبعد نصف ساعة من الجري المتواصل وصلنا المنزل، وقد بدتِ الحقيقة واضحة مذ وصلنا.

كانت النوافذ مكسورة، والبـاب محطمـاً، وأثـاث المنـزل مقلوبـاً رأساً على عقب، كان من الواضح أن أحدهم عبث فيه بكل حرية يبحث

عن شيء مخبأ، والأهم من هذا كله أن الحاجّ غانم لم يكن هنا!

لا، هذا غير صحيح، الحاجّ غانم لا يمكن أن يفعل ذلك، الحاجّ غانم تعرض لهذا الاتهام بسببنا، لقد تخلّصتْ منه من أجلنا، نحن من فعلنا به ذلك.

ذرفتُ دموعي، وصرختُ باسمه بأعلى صوتي هنا وهناك، علّه يخرج من بين الأثاث، علّه يقترب من بين الأشجار، علّه ينزل من السماء، أو علّني أستيقظ من كابوس! ولكن دون فائدة، لقد كانت الحقيقة بيّنة، لقد احتُجز الحاجّ غانم بتهمة السرقة، وفقدنا آخر أمل لنا بالسعادة.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والعشرون | أحمد

مضى على تلك الحادثة أربعة أعـوام، لم يعـد هنـاك مـن يحنـو علينا، ولم أعد إلى منزل الحاجّ غانم مرة ثانية، كل حياتنا كانت تدور حول العمل المتواصل، وكان كل أملنا أن نلتقي لنتحدث في آخر النهـار إذا ما أُتيح لنا ذلك.

في إحدى الأمسيات، حضر رجل إلى منزلنا برفقة والدي، ظننتُ في البداية أنـه زميلـه في العمـل، ولكنـه يكـبره سنّاً، يبـدو في أواخـر الستين، ولكنه يمشي باستقامة وبصحة جيدة، يصبغ شعره الخفيف، وشارباه أيضاً منسقان بعناية، وضحكته كانت تـنم عـن ثقـة كـبيرة في النفس.

كانت بذلته أنيقة، وحذاؤه ملمعـاً، لا يبـدو أنـه مجـرد زميـل لوالدي في العمل، فلم يكن عمل والدي يدر الكـثير مـن المـال، هـل هـو رئيسه؟

دفعني الفضول لأرقبه عن قـرب، ويبـدو أنـني لم أكـن الوحيـد الذي أثار فيّ الفضول، فقد كانت هالة أيضاً تنظر إليه بتمعن عبر بوابة المنزل.

توقف والدي وزميله على الباب، فكـان علـى والـدي أن يعرّفـه

بابنته، فاقتربتُ أكثر لأسمع ما سيقول.

أشـار والـدي إلى هالـة الـتي كانـت ترمـق الـضيف بنظـراتٍ متفحصة، وقال: سيدي، هذه ابنتي هالة.

ابتسم الضيف، ومدّ يده إلى وجنة هالة التي تراجعتْ قليلاً إلى الوراء تمنعه من لمسها، فانزعج والدي لتصرفها الغير مهذب، ولكن الضيف ازداد سعادة وقال: إنها جميلة جداً، لم أر عيوناً أجمل من هذه في حياتي.

دخلتْ هالة المنزل، واتجهتْ إلى غرفتها، فلم نحصل على أية معلومة عن الضيف! لذلك قررتُ أن أقترب، علّني أحصل على معلومة جيدة.

قبل أن يدخلا المنزل قلتُ: مرحباً يا أبي.

نظر والدي إليّ، وكذلك نظر الضيف وابتسم قائلاً: هذا هو أحمد، يبدو شاباً قوياً.

كان جسدي قد نمى في هذه السنوات الأربع، كما ساعد العمل المتواصل في الحقل على نشوب بنية قوية، فما عدتُ صبي الثمان سنواتٍ، فالآن وقد أصبحتُ في الثانية عشرة باتت معالم الرجولة ترتسم عليّ بوضوح.

أشار والدي إلي ولم يجد بداً إلا أن يعرّف بي، وكاد والدي يتجاهل تعريف الضيف لنا، إلا أن الضيف قرأ الفضول في عيني وقال: أنا أدعى بدر، صاحب أكبر عقارات ومصانع في المدينة.

يا إلهي، إنه ليس زميلاً لوالدي! إنه رجل مهم وشخصية غنية! فلماذا هو هنا مع والدي؟ لم تطل حيرتي، حيث استطرد قائلاً: لدي عمل صغير مع والدكم أحببتُ أن أناقشه معه في جو لطيف، فلم أجد أجمل من الحقول الطبيعية حولكم.

أشار والدي بالرضى لما يقوله الضيف، وأدخله المنزل ليتناول طعاماً كانتْ قد أعدّته هالة مسبقاً.

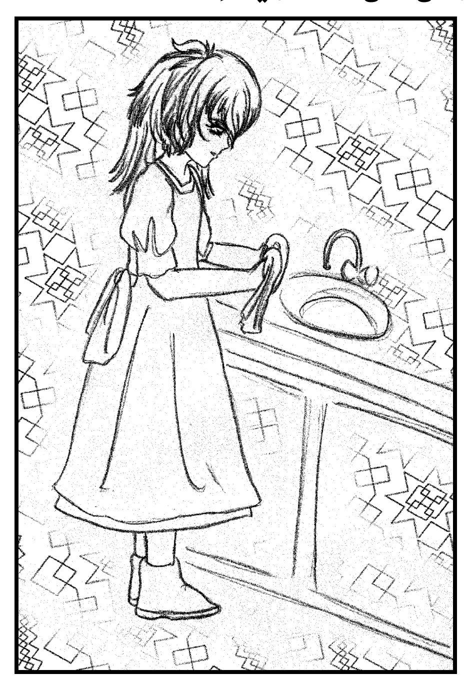
بالطبع ظلّ الضيف يثني على الطعام، وعلى حسن تناسق الأطباق، وأعجب بطهي زوجة والدي، ولم يُتعب والدي نفسه في أن يصحح له المعلومة البسيطة، أن زوجته لا تقوم بأي عمل، بل إن هالة هي من حضّر كل هذا.

كانتْ هالة هادئة، ترمق الجالسين عن بعد، لقد كبرتْ كما كبرتُ، ولكنها ورغم العمل المتواصل كانت تزداد جمالاً كل يوم، فشعرها بات أطول، وعيونها الخضراء باتت شديدة التناسق في وجهها الذي صبغته أشعة الشمس ببعض الاسمرار، كما أنها ازدادت طولاً.

أنهى الضيف طعامه، وغادر المنزل وكله رضى بحسن الـضيافة، وذهب معه والدي يوصله إلى سيّارته التي كان قد ركنها في مكان بعيـد عن الحقول، حتى لا يفسد المناظر الجميلة كما قال.

لم أكن لأفوت فرصة النظر إلى سيارة جميلة كهذه، لم أكن علـى دراية بأنواع السيّارات، فلم أكن أذهب إلى المدينـة إلا نـادراً، ولكـن لم يكن عليّ أن أكون خبيراً لأميز أن هذه سيارة جميلة وباهظة الثمن.

كنّا سعيدين بزيارة شخص مهم كهذا، ولكـن شخـصاً واحـداً لم يبدِ أي علامة رضى على ما يجري، إنها هالة.



■ الفصل الثلاثون | هالة

كنتُ أجلس أمام المرآة، أحاول وضع بعض المساحيق على وجهي، وكانت والدتي تجلس إلى جانبي، تضع المساحيق على وجهها بتناسق شديد، أريد أن أكون مثلها، جميلة وأنيقة، أخيراً كانت هي من وضعتْ لي بعض اللمسات الرقيقة على شفتي حتى أرضى بقسمتي من الجمال، وكانتْ تقول لي مراراً أنني جميلة وعندما أكبر سأزداد جمالاً، بل سأكون أجمل منها.

اليوم حضر ضيف ثقيل الظل منزلنا، أتعبته المشاغل والمدن، وفضّل الجلوس في قرية صغيرة في جو الطبيعة، فاستغلّ أناساً ساذجين لأغراضه الشخصية، ولسذاجتهم كانوا سعداء بحضوره وخدمته والعناية براحته، فكانوا خدماً في فندق بلا أجر.

ماذا يريد شخص كهذا من رجل بسيط كوالدي؟ هؤلاء أشخاص أنانيون، لا يفكرون إلا بمصالحهم الشخصية، أما والدي فكان يحلم بنظرة صغيرة إليه من شخص مرموق، علّه يحظى بحظ طيب!

أي حظٍ طيب ينتظر من رجل يرتدي ثياباً لا يحلم والدي بارتدائها في حياته؟ أي حظٍ ينتظر من شخص يرتدي حذاء يساوي أكثر مما يساويه هذا المنزل؟ إن والدي مجرد حجر صغير في لعبة لا

يدري عن أحداثها شيئاً.

ولماذا أهتم؟ إنه لا يهتم لأمرنا، حتى أن الطعام الذي أطرى عليه الضيف لم يكن إلا الطعام الذي حضّرتُه بنفسي، والذي لم يكلّف والدي نفسه لتصحيح معلومات الضيف في أمر زوجته الكسول!

شبع واسترخى وضحك، وحان وقت المغادرة، كان يوماً مميزاً بالنسبة له، وكذلك مميزاً بالنسبة لوالدي، فقد صرف في يوم واحد مصروف نصف شهر، وعلينا أن نقتّر في النصف الآخر على أنفسنا.

الغريب في الأمر أن الرضا كان يعم المنزل، والدي وزوجته، حتى أحمد كان سعيداً بلقاء شخص ثري! لماذا لا أجد في الأمر ما يسرّ، إنه إنسان متعجرف، لو سلبته الدنيا النقود، وهي قادرة على ذلك في أية لحظة، لكان أمره أسوأ منّا.

مرّ اليوم بهدوء، ولكن زيارة الضيف الثقيل تكررتْ، تحلّق الجميع عند الباب لاستقباله، بينما حاولتُ التهرّب والانعزال في غرفتي، ولكن زوجة أبي نهرتني بشدّة على هذا التصرف الغير لائق، وكان عليّ أن أستقبله بابتسامة مصطنعة.

ربما أبالغ في شعوري هذا، ولكنني أظن أنه ينظر إليّ كثيراً، ويحدق بي بشكل ملحوظ، هل أكرهه إلى الحد الذي أظن فيه أنه

يزعجني شخصياً، أم أن عليّ تصديق حدسي السلبي؟

في الزيارة الثالثة حدثتْ أعجوبة، فقد طلب والدي إلينا أنا وأحمد الجلوس إلى المائدة وتناول الغداء مع الضيف، بينما كان أحمد يكاد يطير فرحاً كنتُ أشعر بتوعك في أمعائي، ورغبة في التقيؤ كلما رأيتُ الضيف يحتسي شيئاً من المرقة، أو يقضم قطعة من الخبز.

هناك خطب ما، هناك ما يُحبك هنا وهناك دون علم منّا، لماذا يحضر مثل هذا الضيف إلى منزلنا بالذات، ولماذا يعاود الزيارة تلو الأخرى، هذا تصرف من يطلب شيئاً، ولكن ماذا يريد شخص مثل هذا من والدي؟

ألا يملك كل شيء؟ ألا يملك الأغنياء كل ما في الدنيا؟ أما يزال الأغنياء بحاجة إلى الفقراء لأمور غير العمل المضني؟ وماذا يملك والدي في هذه الدنيا؟ إنه بكل المقاييس لا يملك إلا قوت يومه!

لماذا أتعب نفسي بالتفكير، فيوماً ما ستتبين نوايا هذا الضيف التي أشك أنها حسنة، ولماذا أهتم؟ فقد جلبه والدي وهو يجني على نفسه.

يزعجني اهتمام أحمد به، إنه معجب بالنقود، ولكنني أعرفه جيداً، لطالما انبهر بأمور سخيفة، ثم تركها من تلقاء نفسه بعد أن

ملّ... أحمد، هذه النقود ليست ولن تكون لنا، إنك ترمقها من بعيد.

أخيراً كان اليوم الذي أُجيب فيه عن جميع التساؤلات، فقد طلب إليّ والدي الجلوس إلى المائدة ليتحدث معي على انفراد، تركنا أحمد كما تركتنا زوجته، لا أذكر آخر مرة تحدثتُ فيها إلى والدي حديثاً شخصياً!

كان قلبي يدق، لماذا لا أظن أن في الأمر خيراً؟ ولماذا فقدتُ كل ثقة بعناية والدي لنا؟ ولكنني لم أُطل التفكير، حيث علمتُ في ثوان معدودة أنني لن أثق بهذا الرجل إلى آخر العمر.

سألني مبتسماً: هالة، ما رأيك في الزواج؟

جفلتُ، لم أفكر يوماً أنني سأتزوج في عمر الثانية عشرة! فقد تزوجتْ والدتي في عمر يقارب العشرين! ومع ذلك لم أجب، بقيتُ أستمع إلى ما يقول.

تابع: أنت تعملين هنا بجد، ولكنك لن تقضي كل حياتك في العمل، فسيحين اليوم الذي تتزوجين فيه، وتصبح لك مملكة خاصة، بل من يدري، ربما تريحك الظروف من كل الأعمال والمشاق.

شكراً أنك تذكرتَ أنني أعمل بجد، وأنني أعاني المشاق في كل يوم، وماذا بعد؟

تابع: إنني أخشى عليك، وأحب لك كل خير، وهناك زوج شريف محترم عظيم يطلبك، وسأكون سعيداً ومطمئناً عليك معه.

تخشى عليّ وتحب لي كل خير، كما تحبه لزوجتك تماماً! ولكن المقدمات قد طالتْ، فسألته أخيراً لأختصر عناء الانتظار: ومن يكون هذا الرجل العظيم يا والدي؟

سألتُ السؤال، ولم يدُر في رأسي إلا جواب واحد، ولكنني كنتُ أشك أن والدي قادر على نطقه، لا يمكن أن يقصد والدي ذاك الشخص، لابد أنه شاب ما التقاه في المدينة، طالب علم ينوي الرحيل، موظف في شركة محترمة، لاعب رياضة... أي شيء، إلا هذا!

نطق: السيد بدر.

شعرتُ أن الهواء قد فرغ من الغرفة، وانحبس النور، واسود الأثاث، ورطبتْ الأرض، وبرد الجو. لم أشعر بمثل هذا الخدران يسيطر على جسدي حتى عندما توفيت والدتي، أنا لم أفقد فقط الجذر الذي يربطني في الحياة، بل بتُّ الآن أطير في مهب الأعاصير.

كان والدي مبتسماً، هل يظن أنني سأكون سعيدة فعلاً؟ هل يظن أنه يعمل لمصلحتي فعلاً؟ هل هو في كامل عقله يا ترى؟

هل ينتظرمني الإجابة؟ ماذا عليّ أن أقول؟ أن أصرخ؟ أن أغني؟

أن أهذي؟ أم أن ألقي بنفسي في أقرب هاوية وأتخلص من هذا الذل؟

مرّت دقائق كالسنوات، ومايزال والدي يحدق فيّ بنظرة ينتظر فيها الرد الآن وحالاً. وهل فعلاً ينتظر الرد؟ هل أنا مخيّرة في هذا؟ فلأجرّب الخيارات التي أمتلكها في هذه الدنيا، بذلك أجبتُ: آسفة يا والدي، ولكنني أظنه كبيراً في السن.

ضحك وأشار بيده وقال: السن ليس مشكلة، إنه يحبك، وسيعتني بك بكل تأكيد.

يا إلهي، ألا يدرك أنه أكبر منه سنّاً! قلتُ: وهو ليس وسيماً على الإطلاق.

انفجر والدي من الضحك، وبات يستمع إلى حديث مراهقة سخيفة، وقال: هالة! هالة! ليس من شخص كامل في هذه الدنيا، فالوسيمون مُعدمون، ولن يحققوا لكِ شيئاً.

فكّرتُ وقلتُ: إنه ليس ظريفاً.

أجاب: إنه كذلك، ولكنك لم تعاينيه عن قرب.

قلتُ: لا بد أنه متزوج، وله أولاد!

أجاب: لديه زوجتان، وسبعة أولاد، كلهم ظريفون، وسيكونون خير عون لك.

سقط في يدي، فقلتُ بنفس الهدوء الذي ما أزال عليه: كم دفع لك يا والدي؟

جفل الأب، لم يتوقع سؤالاً كهذا من طفلة، الآن فقط كان يظنني طفلة، ولكنه تظاهر أنه لم يسمع السؤال، وقال: عفواً؟

قلتُ: لا أريده يا أبي، أنا لا أريده.

اختفتِ الابتسامة، وتحولتْ علامات الجدية والصرامة على وجه والدي الذي قال: أنتِ لا تعرفين ما تقولين، لن تجدي عريساً كهذا كل يوم، أنت محظوظة.

ابتسمتُ وقلتُ: الحظ الجيد ليس نصيبي، لقد اعتدتُ على ذلك.

ولكنه قال: سأتظاهر أنني لم أسمع الجواب، فكري في الأمر ملياً، إنه إنسان مميز، ويحبك.

شعرتُ بأمعائي تتقطع إثر آخر كلمة، ونهض والدي ليتركني في الحجرة وحدي، وما يزال صدى الحديث يتردد على جدرانها، كان عليّ أن أترك الحجرة وأن أجري في الحديقة حتى أنسى ما سمعتُ، ولكن قدماي خانتاني، لا أستطيع أن أقف.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والثلاثون | أحمد

من الغريب أن يطلب والدي إلينا المغادرة لينفرد بهالة، هل فعلتْ ما غضب لأجله، هل شكتْ زوجته إليه أمراً ما؟ ولكن لا يبدو عليه الانزعاج، يبدو سعيداً!

حاولتُ استراق السمع، ولكن زوجة أبي منعتني بشدة، وطُردتُ من المنزل، ولم أستطع سماع شيء من الحديث، كان عليّ انتظار هالة إلى أن تخبرني بما دار بينهما.

لم يطل حديثهما، فما هي إلا دقائق حتى رأيتُ والدي يخرج من المنزل وعلامات الانزعاج كانت بادية عليه، أرجو أن تكون هالة قد تمالكتْ نفسها.

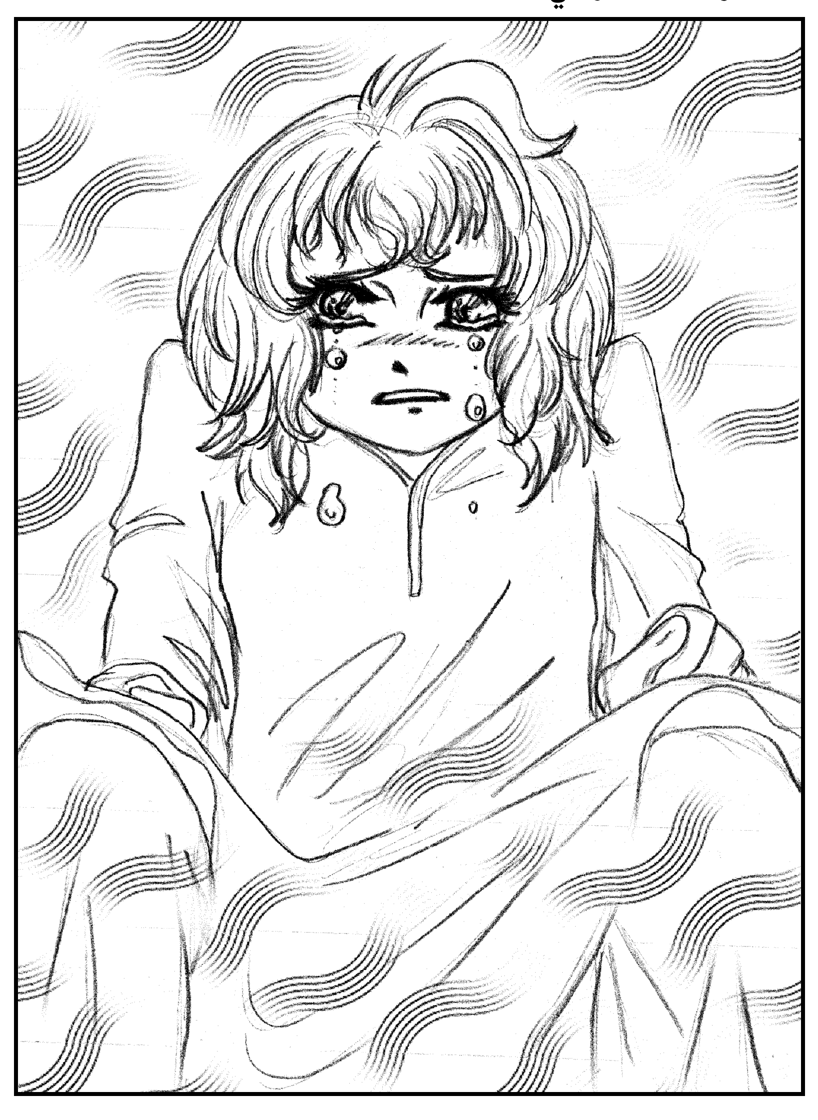
ركضتْ زوجة أبي إليه، بينما ركضتُ إلى الداخل لأرى هالة.

كانت هالة ما تزال جالسة على كرسيها، ويالـه من جو مشحون، إنها تشد نفسها بقوة، وكأنها تكتم صرخة مدوّية، جلستُ إلى جانبها بهدوء، وسألتها بصوتٍ هادئ: ماذا كان يريد والدي؟

قالتْ هالة والدموع بدأت تنهمر من عينيها رغماً عنها: لقد باعني، باعني!

غطّتْ هالة وجهها بين ذراعيها، وانهمكتْ بالبكاء، ولكن كان

عليّ أن أفهم أكثر من ذلك، فقرّبتُ الكرسيّ منها ووضعتُ يدي على كتفها وقلتُ: أخبريني ما حدث.



ظلّتْ هالة تبكي بحُرقة، شعرتُ وكأن والدتي عادتْ للحياة وماتت من جديد! ولكن هالة نطقتْ بحروف متقطعة، وصوت متكسر: يريد... أن... أتزوج... من... بدر...

لم أفهم ما سمعتُ، سألتها: بدر! هل تقصدين العمّ الكبير صاحب الثروة العظيمة الذي يحضر إلى منزلنا؟

وكنتُ ما أزال أُكنّ له ولنقوده الاحترام، ولكنّ هالة صرختْ: ذاك العجوز الهرم! إنه يبيعني!

في هذه اللحظة تكسرت صورة الرجل المحترم، صاحب الثروات، الزائر العزيز، الذي ينشر الحظ السعيد حيث يحطّ، إنه ما يزال جشعاً، في منزل صغير بسيط كهذا، في أجواء فقيرة كهذه، ما يزال يرغب في الحصول على شيء، حتى ابنة في الثانية عشرة من العمر!

أليس هناك حد لكل هذا؟ ألا يشبع أمثال هؤلاء؟ ووالدي... كيف يطاوعه في أمر كهذا؟ فتاة في الثانية عشرة ما تزال طفلة على أي زواج، فكيف بزواج كهذا؟ هل يُعقل؟

أمسكتُ يد هالة وقلتُ لها مطمئناً: لا يستطيع أحد أن يجبرك على الزواج.

ولكنها قالت: فقط يستطيع والدي أن يكرهني، ويعاقبني، ويعذبني، حتى أترك المنزل.

عندما سمعتُ هذه الكلمات قلتُ دون تفكير: إنها فكرتها هي.

نظرتْ هالة إليّ، ولكنها طأطأتْ رأسها ثانية وقالتْ: النتيجة واحدة.

عقدتُ العزم أن أظل قوياً صامداً أمام هذه المحنة، وأن لا أستسلم أبداً، فقلتُ: هالة، إياك أن تقبلي، سنرفض بكل ما أوتينا من قوة.

نظرتْ هالة إليّ وسألتني بصوتٍ حزين: ألا تحب أن تكون لك سيارة؟

هززتُ رأسي معارضاً بشدة: ليس بهذه الطريقة!

وسط الدموع ارتسمتْ ابتسامة باهتة على وجه هالة، على الأقل يوجد إنسان في هذا المنزل.

أمسكتُ ذراعها، وقدتها إلى غرفتها لتأخذ قسطاً من الراحة.

مر يومان هادئان، لم يتحدث فيهما أحد عن العجوز بدر، نعم فمن الآن بات بالنسبة لي العجوز فحسب، أما زوجة أبي فقد كانت حانقة طول الوقت، لم يكن هذا أمراً جديداً ولكننا الآن نعلم سبباً

وجيهاً له، ولا أظنها ستستسلم.

ذات مساء، استدعاني والدي للجلوس إليه، أظنه سيحادثني في أمر هالة، فلا حديث يجمعنا على الإطلاق.

جلستُ بهدوء، وقررتُ أن أتمالك نفسي، فهذا والدي، ولابد أنه يحب هالة ويتمنى لها كل الخير.

افتتح والدي الحديث: لابد أن هالة قد أخبرتك عن أمر بدر.

أشرتُ بالإيجاب، فتابع: ما رأيك؟

ياله من سؤال مفتوح، ولكنني لن أكذب، أجبتُ: إنه كبير بالنسبة لها، فهي ما تزال طفلة.

استنكر بلطف: هالة لم تعد طفلة، إنها جميلة وجذابة، حتى بدر قد أعجب بها.

ولكنني قلتُ مجدداً: هو كبير جداً عليها.

تأفف والدي، ثم بدأ الحديث الصريح: إنه غني يا أحمد، هل تعلم كيف ستتحول حياتنا بفضله؟ هل فكرتَ في ذلك؟

يبدو أن الشجار سيبدأ عما قريب، ولكن عليّ أن أحاول تهدئة الحديث قدر الإمكان، قلتُ: هل تنازل لك عن جميع أمواله؟

قطب حاجبيه وقال: لا.

سألتُ: هل عرض عليك شراكة في أمواله؟

أشار بيده وقال: لا، لا... ليس إلى هذا الحد.

بدأتُ أتنازل وأشعر بالذل في كل خطوة: هل كتب إليك ملكية عقارية ما؟

أجاب يستخف بما أقول: لا يا أحمد.

قلتُ: هل أعطاك منزلاً أو شقة في مكان ما؟

فكّر قليلاً وقال: ربما ليس بعد.

قلتُ: سيّارة!

هنا ارتسمتْ ابتسامة ابتهاج على وجهه وقال: واحدة لي، وأخرى لك.

ضاق الهواء في صدري، رغم أنني كنتُ أعلم أن ما سأقول سيفجّر المنزل لأسابيع، ولكنني لم أستطع أن أحبس لساني، قلتُ: ما أرخص هالة في عينك يا أبي!

صفعني والدي من فوره، فسقطتُ على الأرض بشدة، وألقى بالكرسي الخشبي على رأسي، فأصبتُ بجرح على جبهتي، رغم شدة الألم والنزيف المفترضين من إثر الضربة، إلا أنني لم أشعر بهما، فقد كان الدم ما يزال يغلي في رأسي إثر كلمات والدي، وفوقها الصراخ

والشتائم المتوالية، ثم سحبني من قميصي، وألقى بي أمام زوجته المبتسمة، وهالة الخائفة، إلى الحظيرة، التي باتت مليئة بالحيوانات بعد تلك الأعوام التي انقضت على ضياع الخراف.

تبعتْ هالة والدي، وحاولت الإمساك بيده وردعه عن إيذائي، ولكنها لم تفلح، فقد دفعها بسهولة إلى الأرض، ولم تفلح أي محاولة للنجاة من هذا المأزق، ولكنني لم أكن لأتنازل.



■ الفصل الثاني والثلاثون | هالة

عندما كانت والدتي تطلبنا إلى حديثٍ انفرادي، كان جو السكون والطمأنينة يعمّ المكان، حتى وإن كنا نعلم أنها ستؤنبنا، ولكننا كنا نعلم أنها تفعل ذلك لأنها تحبنا، وتريد أن نكون أفضل.

عندما طلب والدي إلى أحمد الانفراد في حديث، كان قلبي ينقبض، أعلم أن أحمد سيعاني، وأن والدي سيؤذيه، وأن لا خير في مثل هذا الاجتماع، وأن والدي لا يريد إلا إرضاء التي تقف إلى جانبي، وتمنعني من استراق السمع بأي ثمن.

هي لحظات وكان والدي يجرُّ أحمد خارج الغرفة إلى الحديقة ثم إلى الحظيرة، وكان رأسه يقطر دماً! يا إلهي، أرجو ألا يكون جرحاً خطيراً، ماذا قلتَ له يا أحمد؟

حاولتُ منع والدي من حبس أحمد، فهو يحتاج إلى من يعتني بجرحه، ولكنه دفعني بقوة، وأغلق الباب عليه، وتجاهل ندائي وتوسلي، وتركنا ليغادر المنزل إلى حيث لا نعلم.

من الجيد أن يغادر والدي المنزل، ولكنها كانت لا تزال هنا، ألا ترحل عنّا ولو للحظة!

كانت تبتسم، تغمرها سعادة بالمشهد المؤثر الذي شاهدته،

وتتوعدني بتحقق مرادها مهما كلّف الثمن، أعني مهما كلّفنا الثمن.

إلى متى ستنتصر؟ وهل النصر سيكون حليفها الآن أيضاً؟ هل سينتهي بي المطاف إلى العجوز بدر؟ هذا ظلم... ظلم!

طرقتُ باب الحظيرة أنادي أحمد، سمعته يقول: هالة، أنا بخير، لا تقلقي عليّ.

صرختُ: أيها الأبله! ماذا قلتَ؟

سمعتُ ضحِكه من وراء الباب، إنه يسخر مما يجري، ولكنه قال: إياكِ أن تستسلمي يا هالة، لن نخضع هذه المرة.

شعرتُ بشيء من اليأس، فلم تكن محاولاتنا لتجني أي فائدة، فقد كانت المنتصر دائماً، وكنا من يعاني.

شعر أحمد بهدوئي، فاقترب من الباب أكثر، وعلا صوته وهو يقول: لن نستسلم مهما كلّف الثمن، إنها حياة يا هالة، ولن تعيشيها مع بدر.

أطرقتُ أفكر، ثم قلتُ بصوت يائس: لماذا هو معجب بي؟

لم يقاطعني أحمد، فقلتُ: لربما إذا ما قصصتُ شعري نفر مني، أليس كذلك؟ إنه شعري ما يريد.

قال أحمد بصوتٍ جاد: إياك أن تؤذي نفسك من أجل أحد، إنه

لا يستحق إهدار شعرة واحدة من رأسك.

ابتسمتُ بصعوبة، ثم قلتُ: لو أن والدتي كانتْ هنا لما حدث كل هذا، لماذا تركتِنا يا أمي؟ ألا ترين ما جرى بنا؟ ألا تساعدينا؟

شعرتُ أن كلامي قد أزعج أحمد، وسمعتُ منه كلاماً أسمعه لأول مرة، قال: أمي... أمي... أمي... كفاك تمسكاً بالموتى يا هالة، أمي ليستْ هنا لتساعدك.

صُدمتُ، كيف يجرؤ على قول شيء كهذا، قلتُ: لا أصدق أنك تقول ذلك!

عندها قال بصدق: نحن وحدنا يا هالة، أمي غادرتنا منذ سنين، وما زلتِ تظنين أنها قادرة على مساعدتنا، أَوَ تستعينين بها دون غيرها؟

قلتُ: أنا لا أثق بأحد يا أحمد.

قال: لستُ أثق بأحد أيضاً يا هالة، ولكنني أعلم أن الجميع ضِعاف، ويحتاجون العون، فلا تظني أنك ضعيفة.

عندها شعرتُ برأسي يدور، لقد أمسكتْ زوجة أبي بشعري، وطرحتْ بي أرضاً لأتوقف عن الحديث إلى أحمد، وصرخَتْ في وجهي تحثني على متابعة العمل الذي لا ينتهي.

لم أفهم ما عنى أحمد، ولم أعرف ما يرمي إليه، ربما كان علينا الحديث أكثر، ولكنني ما أزال غاضبة من ذكر والدتي على لسانه بكل استهتار، ووصفها بالميتة، إنها ما تزال حية في قلبي إلى الأبد.

ظلّ أحمد حبيس الحظيرة يومين كاملين، ولم نجلب له طعاماً، وكان عليه أن يرتوي من المياه المقدمة إلى الأنعام هناك.

إلى متى؟ ألا يتوقف كل هذا إلا إلى أن أقبل ببدر شريكاً في الحياة؟ ربما كان في صحة جيدة، ولكنه لن يعيش أكثر من عشر أو خمسة عشر عاماً بتقدير العمر البشري! هل أحتمل ذلك؟ كم سيكون عمري حينها؟ سأكون في العشرين، في مقتبل العمر، لربما ورثتُ نقوده وأصبحتُ غنية في سن صغيرة، ولم أعد بحاجة إلى أحد، وليس عليّ أن أعود إلى هذا المنزل التعس.

ما هذا الذي تفكرين به يا هالة، هذا بالضبط تفكير والدي، النقود ليست كل شيء، بل هي لا تعني شيئاً في ظروفنا، فكل ما أريده هو العناية والمحبة، ولستُ على ثقة أن بدراً هو أفضل من يقدم شيئاً كهذا.

وإلى متى العناد؟ وإلى متى المقاومة؟ إنهما لن يستسلما، وسأخضع شئتُ أم أبيت!

ذات يوم حضر العجوز بدر إلى منزلنا، ولكن والدي لم يكن هنا! استقبلته زوجته، بينما ركضتُ إلى غرفتي لا أريد أن أراه.

لم يحضر لأجل والدي، بل بات يحضر من أجلي مباشرة، ولم يهمه غياب والدي على الإطلاق، فقد استحلّ المنزل، وطرق باب غرفتي ودخل، وقد كانتْ زوجة والدي تسانده.

كان يقف على الباب، عجوزاً هرماً، يرتدي ثياباً لا تناسب سنه، ويبتسم ابتسامة من يحصل على كل ما يريد.

بدأت أرتجف، لا أريد أن أراه، ولكنه دخل، واقترب، ثم جلس على فراشي إلى جانبي، من سمح له بذلك؟ ولماذا لم أستطع أن أنطق بأي كلمة؟

قال: إنك جميلة يا هالة.

أشعر بألم في معدتي، لِمَ يتوجب عليّ سماع هذا؟

تابع: سنكون سعيدين معاً.

أبعدتُ جسدي بضعة سنتيمترات عنه، ولكنه لم يأبه لذلك، بل اقترب أكثر، ومد يده يقول: ستحصلين على ما تشائين، سمّه فقط.

قلتُ: لا أريد شيئاً.

اقتربتْ يده من وجنتي، ولكنني أشحتُ برأسي بسرعة، أريد

أن أركض إلى الخارج، ولكن قدماي تجمّدتا!

اقترب أكثر، ولمس يدي، فرفعتها بسرعة وقلتُ: لا تلمسني!

ولكنه لم يبالِ، بل أمسك بيدي بقوة وجذبني إليه، بدأتُ أصرخ: آه!... أحمد! أحمد!...

ولكن أحمد كان حبيس الحظيرة!

صرختُ: أمي... أمي!...

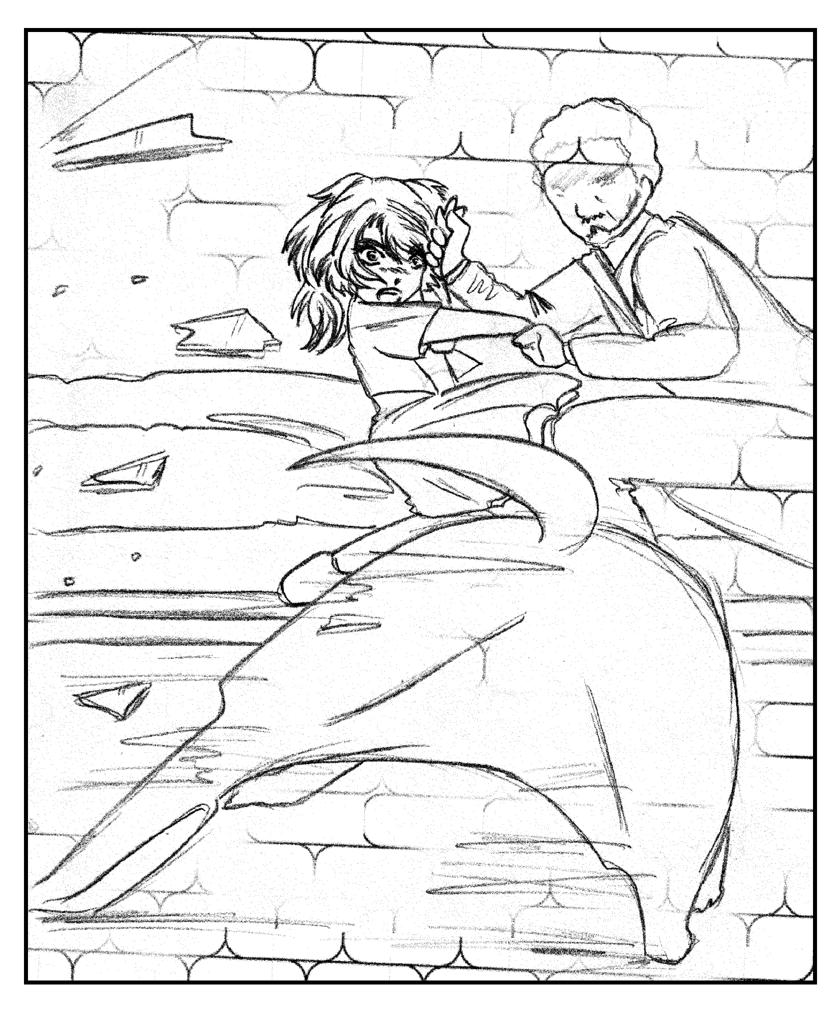
ظل يجذبني إليه، فصرختُ أخيراً: يا ربّ!...

انكسر زجاج النافذة، كسره ثلج الغاضب بقفزة واحدة إثر استنجادي، وقفز على بدر، وعضّ ذراعه بقوة، وأصابه بأذى كبير!

صرخ بدر، ورمى بثلج أرضاً، ونهض ينظر إلى الدم النازف من ذراعه، فارتعد وهرب إلى خارج المنزل، إلى السيارة، إلى المدينة...

خشيتْ زوجة أبي على نفسها، فهرعتْ هي الأخرى إلى غرفتها، وأغلقتِ الباب خوفاً من غضب ثلج الهائج، أمّا أنا فلم أصدق عيني، لقد أنقذني، ثلج أنقذني!

■ ■ ■



■ ■ ■

■ الفصل الثالث والثلاثون | أحمد

كان الدم يقطر على ثيابي، إنـه دم كـثير، هـل أنـا بخـير؟ هـل يعقل أن أموت هنا والآن إثر النزيـف، ولا أمـوتُ إثـر التهـاب مـزمن بمرض الإيدز؟

بدأتُ أضحك، يبدو أنني أهذي، غريبة هذه الدنيا.

لحظة... هالة وحيدة الآن، علـيّ ألا أستـسلم، يجـب أن لا يـتم زواج كهذا، هذا ظلم... ظلم!

نهضتُ بصعوبة، ونظرتُ حولي فإذا بي أرى الأشياء بـصعوبة، وأسمعُ طرقاً على باب الحظيرة، هذا صوتُ هالة.

اقتربتُ من الباب بـصعوبة، ثـم قلـتُ: هالـة... أنـا بخـير، لا تقلقي عليّ.

ودار بيننا حديث قصير، إلى أن ذكـرتْ هالـة والـدتنا، لم تكـن المرة الأولى التي تطلب فيها هالة النجدة مـن أمّنـا، إلى متـى يـا هالـة؟ متى ستسلّمين بالأمر؟ ألا ترين ما أرى؟ أيصعب عليك ذلك بعـد مـرور كل هذه السنين؟ أمـي ليـستْ هنـا، أمـي لا تـساعدنا، الله وحـده يعلـم بأمرنا، هو من يرانا، ومن يعيننا، وما زلتِ تستنجدين بغيره؟

يبدو أنني لم أحسن الحديث، يبـدو أن هالـة لم تفهـم مـرادي،

لقد ذكرتُ والدتي بحدة جعلتْ هالة تنفر بسرعة، ماذا فعلتُ؟

والأسوأ من ذلك أن زوجة أبي قد قستْ عليها، وأجبرتها على العودة إلى العمل.

بحثتُ في الحظيرة عما أربط به جرح رأسي، فلن يحتمل جسدي نزيفاً أكثر من ذلك.

لا تبدو هذه الخرقة نظيفة، وماذا إذا ما التهب الجرح؟ هل هذا كفيل بالقضاء عليّ؟ هل سيظهر الإيدز حينها؟ وماذا يفعل؟ حرارة، قشعريرة، تقيؤ، جفاف؟ كيف لي أن أعرف؟

وهل لديّ خيار آخر؟ ربطتُ جرح رأسي بالخرقة المتسخة، فليتوقف النزيف أولاً قبل كل شيء.

مرّ اليوم، ونمتُ على القش، تذكرتُ اليوم الذي أضعتُ فيه القطيع، لقد نمتُ في المكان نفسه، وأصبتُ بحمى شديدة، يا لها من أيام، كم تمنيتُ ألا تتكرر.

مضى الليل، وحلّ الصباح، ولم يُسمح لي بالخروج أو بالحديث إلى هالة، ولم يُجلب لي أي طعام، حتى اضطررت لشرب المياه المقدمة إلى الأغنام.

إنني أتضور جوعاً، ولكن ليس هناك طعام مشترك بين الأغنام

والبشر، هل سأضطر لتناول الأعشاب؟

ليلة ثانية، ثم صباح ممل آخر، وجوع شديد، ولم يطـرق البـاب أحد إلى الظهيرة، حيث تسللتْ هالة إلى هنا بخفة، تحدثنا قليلاً، ثـم هرعتْ إلى العمل من جديد.

في اليوم الثالث سمعتُ صوت سيّارة، هذه أول مـرة يـركن فيهـا أحدهم سيارته بالقرب من المنزل، لابد أنه بدر.

ماذا يفعل هنا الآن؟ وهل رضخَتْ هالـة لطلبـه؟ لا يـا هالـة، لا تفعلي، لن تكوني له أبداً!

بقيتُ أسترق السمع جيداً، وسمعتُ في الحديث أن والـدي لـيس في المنزل، ولكنه استحل الدخول، أليس هنـاك حيـاء؟ لـيس في المنـزل سوى هالة وزوجة أبي!

دقائق معدودة وبدأتُ أسمع فيهـا صـوتَ هالـة يعلـو، بـدأ الـدم يغلي في رأسي، ماذا يجري هناك؟ ماذا يفعل الوغد والأفعى؟

إنها تناديني، تستنجد بي، حاولتُ دفع الباب، اندفعتُ عليـه بكتفي مراتٍ عديدة ولكن لا فائدة، ضربته بقدمي دون جدوى، إنـه لا يتزحزح.

بـدأت الحيوانـات تـضطرب، هنـاك خطـب كـبير في الخـارج،

صرختُ بأعلى صوت: هالة!... هالة!...

سمعتُ صوت زجاج ينكسر، ونباح سحاب المخيف، وصراخ بدر، لقد هجم عليه سحاب دون شك!

سمعتُ بعدها صوت محرك السيارة يبتعد عن المنزل بسرعة، ثم هدأ المكان، ليس هناك أي صوت!

ركزتُ ظهري على الباب، شعرتُ بإرهاق كبير رغم أنني لم أتزحزح خطوة من مكاني، ماذا سيحدث بعد الآن؟

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والثلاثون | هالة

لقد كانتْ أمي تعتني بثلج، تطعمه بانتظام، وأحياناً كانت تمشط شعره الجميل.

كانت دائماً تقول أن الكلاب وفيّة، تظل إلى جانب صاحبها مهما اشتدت الظروف.

اليوم كبر ثلج، ولم يعد الجرو الصغير الذي اعتنت به والدتي، بل بات قوياً شجاعاً، يحرس المنزل والقطيع بكل بسالة.

ولكنه اليوم كان فارساً مقداماً، دافع عني بكل شجاعة، فهرب بدر من المنزل، كما اختبأت الأفعى في حجرها.

كيف لي أن أشكره؟ كيف له أن يفهم أنني مدينة له بحياتي؟ كيف لي أن أعبّر له عن حبي وتقديري؟ أيكفي أن أعانقه طول العمر، وأربتَ على شعره الجميل؟

وهل تحتمل الأفعى سعادة الخراف؟ ظلّت تحبك المؤامرة تلو الأخرى، إلى أن عاد والدي، فعرف ما فعله ثلج بضيفه العزيز، أمّا ما فعله ضيفه القذر بي فلم ولن يعرف!

حُبستُ في غرفتي، وأغلق الباب، بينما رُبط ثلج في الحديقة لليلة كاملة.

وفي صباح اليوم التالي، كنتُ أسمع ثلجاً ينبح، كان نباحه من لون مختلف، كان كئيباً حزيناً، بل كان يائساً، أكلّ هذا الحزن علينا يا ثلج؟ أحمد يُحبس في الحظيرة، بينما أُحبس في غرفتي.

استمر صوته الغريب، وسمعتُ باب المنزل يُفتح، كان وقع خطوات والدي معروفاً، وكانتْ الأفعى تسير إلى جانبه بخطوات قصيرة، ما تزال تهمس في أذنه بأخبار أقسم أنها كاذبة.

دقائق مضتْ، وتسارع نباح ثلج الغريب، بدأ قلبي يخفق بشدة، كلاّ، ليس ما أفكر فيه، كلاّ لا يمكن...

طرقتُ الباب بقوة، وبدأتُ أصرخ: لا! لا تفعل! لا يؤذه أحدكم! اتركوه وشأنه! أبي!

كما سمعتُ صوتاً آخر، إنه صوتُ طرق أحمد باب الحظيرة، وصراخه أيضاً بكلماتٍ لم أستطع تمييزها، ولكن لا جدوى، فقد انطلقتِ الرصاصة، وكتمتْ صوتَ ثلجٍ إلى الأبد.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والثلاثون | أحمد

كنتُ ما أزال في الحظيرة في ذاك الصباح المشؤوم، لم أستطع النوم من شدة الجوع، وقد تقيأتُ الماء الذي شربته بالأمس، ولكن الأهم من هذا كله كان نباح سحاب الغريب، لم أسمعه يئن هكذا من قبل، هل هو مريض؟

اقترب أحدهم من ثلج، وبدأ نباحه يتسارع أكثر، وسمعتُ صوت طرق عنيف بباب هالة، إنها تصرخ! بدأتُ أضرب باب الحظيرة بكتفي، محاولاً خلعه إذا أمكن، وصرختُ أنادي والدي: لا تؤذ سحاباً، إنه مخلص، إنه يعمل لك ليل نهار! لا تنصتْ إليها، إنها تهدم المنزل!

ولكنه رغم الضجيج من حوله، كان قد حسم أمره، بل حسَمَته له، وأطلق رصاصته في صدر سحاب، وودّعْنا آخر صديق إلى الأبد!

انطلقتْ صرخة عارمة من غرفة هالة، لم أسمعها تصرخ هكذا في حياتي، إنها تنتحب حزناً على آخر ما نملك، ولولا صرختها هي لكنتُ صرختُ، ولكن سماعي لصراخها كان أعمق من الصراخ نفسه.

خارتْ قواي، وجلستُ على عتبة الباب، أسمع بكاء هالة، وأشعر بابتسامة زوجة أبي، وبدم سحاب يسيل على الحقل ليترك

أثره إلى آخر العمر.

ها نحن نودّع عزيزاً علينا، إنها سلسلة متتابعة من الأحزان، ماذا نفعل؟

بقيتُ على جِلستي تلك إلى أن سمعتُ عربة والدي تغادر المنزل، شعرتُ بالروح تسري في جسدي، نهضتُ بسرعة وقد قررتُ ما لم أجرؤ عليه من قبل، إنه الآن أو أبداً.

بحثتُ حولي عن أخشاب رقيقة، ووضعتُ عليها خشبتين قاسيتين، فركتُهما جيداً إلى أن لمعتِ الشعلة فيهما، فحملتُ خشبة وقد هبّتْ فيها النار، ووضعتها على زاوية الباب المقفل للحظيرة، وحرقتُ زاوية القفل إلى أن اشتعل الخشب وأصبح هشّاً، واستطعتُ كسره والخروج من السجن.

كانت الحظيرة تحترق، ولكن لم يكن لديّ وقت لأفكر في أي شيء أتركه، فقد كان عليّ أن أركض إلى غرفة هالة، وأفكر بأسلوب أخرجها فيه دون أن تشعر زوجة أبي بنا.

لم يكن من الصعب عليّ أن ألحظ الزجاج المكسور للغرفة، وقد وُضعتْ عليه خشبتين رقيقتين، استطعتُ أن أنزعهما بسهولة، ونظرتُ إلى الداخل، فكانتْ هالة تجلس حزينة في الزاوية.

همستُ لها: هالة... هالة...

نظـرتْ إلـيّ وركـضتْ وعلـى وجـهـهـا دهـشة سـعيدة بـرؤيتي، سألتْني على الفور: أحمد! كيف خرجتَ؟

ولكنني وضعتُ اصبعي على فمها وقلتُ: لا تُحدثي أي ضـجيج، سنهرب من هنا.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والثلاثون | هالة

كنتُ ماهرة في الكثير من الألعاب، ولكن أكثر لعبة كنتُ أُتقنها هي لعبة الاختباء، فبينما كانت والدتي تجد أحمد في دقائق، كانت تقضي ساعاتٍ للعثور عليّ.

كان هذا قبل سنين، وكان غرضه التسلية، أما اليوم... فإننا أنا وأحمد نجد أنفسنا مضطرين للعب اللعبة على مستوى أعلى.

نهرب! سألتُ أحمد: إلى أين؟

ولكنه طلب إليّ القفز من النافذة والجري المتواصل قبل أن ينطق بأية كلمة.

لم يكن لديّ أي مانع في الهرب، لم يكن لديّ ما أخسره سوى زوج عجوز وحياة العبودية، ولكنني لم أستطع منع نفسي من التفكير في المستقبل، إلى أين نذهب؟ وماذا إذا ما لحق بنا أحد؟ أي عقاب سنلاقي؟ ربما سنظل حبيسين طول العمر!

يبدو أن أحمد لم يجب عن أي من هذه التساؤلات، ويبدو أن عقله غير قادر على حساب الكثير للمستقبل، وهذا ما يجعله مقداماً مندفعاً، أعترفُ أنه في مثل هذه اللحظات أريد أن أعتمد عليه، وأغلق عقلي إلى الأبد.

أريد أن أركض مثله، أن أشعر بالحرية ولو للحظات، أن أشعر أنني ابتعدت عن الأحزان، أن أكون حرة، أن نكون أنا وأحمد معاً دون شخص آخر يعكّر حياتنا، هل أستطيع أن أحلم بشيء كهذا؟ هل يحرم عليّ الحلم؟

ولكنه لم يكن حلماً بالنسبة لأحمد، بل كان هدفاً، وهذا ما يميزه اليوم عني، لذلك فإنني سأنصاع، وسأترك مصيري بين يديه، فأنا على يقين أنه لن يتخلّى عني مهما حدث.

ركضنا لساعتين متواصلتين دون أن نشعر، وبدأتُ أشتم رائحة البحر، مرّ زمن طويل ولم تطأ قدماي الشاطئ، ولم ألمس مياه البحر المالحة.

بدأ الشاطئ يظهر للعيان، هناك بواخر ضخمة راسية، وأناس كثيرون، كثير منهم يعمل في البحر، والبعض الآخر يحمل أمتعته للسفر، هناك حياة مختلفة هنا.

ولكن ماذا يفعل طفلان هنا؟ سألتُ أحمد أخيراً: أحمد، ماذا تنوي أن تفعل؟

أجاب وقد أبطأ خطواته: سنرحل.

سألتُ: إلى أين؟

نظر إليّ وأجاب: هل هذا مهم؟

قلتُ: لستُ أدري، ولكننا لا نعرف ما يمكن أن يحدث.

قال: لن يحدث أسوأ مما حدث يا هالة، علينا الآن فقط أن نفكر بطريقة نركب فيها إحدى هذه البواخر.

نظرتُ إلى البواخر، إنها ضخمة لدرجة مخيفة، فانتابني شيء من القلق، ولكن أحمد أمسك بيدي، وتابع المسير بين الناس، إلى أن وصلنا المرفأ، وبدأ ينظر حوله، فسألته: عن ماذا تبحث؟

أجاب: عن رجل يساعدنا.

سألتُ: ومن يكون هذا الرجل؟

أجاب: شخص طيب.

سألتُ: من هو؟

أجاب: لم ألتق به بعد.

حدّق أحمد في الوجوه، هناك ما يزيد عن ألف شخص حولنا، فعن من يبحث؟

فجأة ركض أحمد إلى أحد الرجال، يقف بالقرب من مدخل إحدى البواخر، ويرتدي ثياب البحارة، يبدو أنه مسؤول هنا، وبالفعل ترتسم على وجهه علامات الحكمة والطيبة، أظن أن أحمد قد

أحسن الاختيار.

ألقى أحمد التحية، وسأله عن الباخرة وموعد رحيلها، فأجابه البحار: ستبحر هذه الباخرة خلال نصف ساعة، وتستغرق رحلتها ثلاثة أيام في البحر، هل أنتَ مولع بالبحار؟

أجاب أحمد دون تفكير: أحب البحر كثيراً، كما أحب البواخر الكبيرة، هل نستطيع أن نتجول فيها؟

ابتسم البحار وقال: لا أظن ذلك يا صغيري، أين والدك؟

اقشعرّ جسدي، ولكن أحمد أجاب: إنه في المنزل، لقد حضرنا بأنفسنا لمشاهدة البواخر.

ضحك البحار وقال: المكان خطير هنا، لا تستطيعان البقاء وحدكما، هذا مكان للكبار.

وأشار بيده أن نرحل.

لم تنجح أولى محاولات أحمد، ولكنها الأولى، وهناك أكثر من باخرة وأكثر من مئة بحّار، ولن يستسلم.

ركض إلى بحّار آخر، وحاول معه ثانية، ولكن دون جدوى، لم يكن أحدهم ليترك لنا فرصة في الدخول، حتى ولو لإلقاء نظرة صغيرة، وكنتُ أعلم أن أحمد ينوي الاختباء في الباخرة فور صعوده إليها.

حُمنا حول المكان لساعتين متواصلتين، وعبثاً حاولنا، لم يُسمح لنا بصعود أي باخرة، بل كان هناك من يقترب منّا، وكنتُ أشعر أن المشاكل في طريقها إلينا.

إنهما رجل وامرأة، يقتربان منّا، فكّرنا في الهرب ولكن ذلك سيكون مشبوها جداً، وسيركضان خلفنا، ولا نعلم ما سيجري.

تصرفنا على طبيعتنا، ولكننا لم نستطع أن نخفي القلق من على وجوهنا، الرجل كان ضخم الجثة، يرتدي ثياباً غامقة وقبعة، والمرأة لم تكن جميلة، ذات شعر قصير، وترتدي ثياباً غامقة تشبه ثياب زميلها، اقتربتْ منّا وحاولتْ أن تكون لطيفة وهي تسأل: ماذا يفعل طفلان في مكان كهذا؟

قال أحمد: نشاهد البحّارة والبواخر الكبيرة.

قالتْ: وأين والدكما؟

أجاب: في المنزل.

سألتْ: وهل يعلم بوجودكما هنا؟

أجاب: نعم، وهو لا يمانع.

قال الرجل مقاطعاً: ولكنكما تسيران هنا لمدة ساعتين، وقد اشتبه البحّارة في أمركما، لماذا تريدان صعود الباخرة؟

قال أحمد: أتمنى أن أصعد الباخرة، أحب أن أصبح بحّاراً في المستقبل.

قال: ألا تحاولان مغافلة البحّارة والصعود إلى البواخر؟

أجاب أحمد: لقد استأذنّا، فلماذا نغافل البحّارة؟

قالتْ المرأة: أعطني رقم هاتف والدك.

بدأ الوضع يسوء، أجاب أحمد: لستُ أحفظ رقم الهاتف.

سألتْ: فأين تسكنان؟

أجاب أحمد: قريباً من هنا، نستطيع العودة وحدنا.

ولكن الرجل قال: لا أظن ذلك.

سكتنا، فقالتْ المرأة: لستما أول من يحاول الهرب بالبواخر، أطفال اليوم يفعلون أكثر من ذلك.

عندها قلتُ منزعجة: ولماذا يفعل الأطفال شيئاً كهذا؟

قالتْ المرأة دون اكتراث: حب الفضول.

الفضول! لا أذكر آخر مرة فكرتُ فيها بالفضول! هل يُعقل أن الكثير من الأطفال يلاقون ما نلاقي؟ ألا يهم هذه المرأة السبب الذي دعانا للكذب والهروب والتسكع؟

أمسك الرجل بيد أحمد، وسحبه إلى سيارته، وأمسكتْ بي المرأة

وسحبتني إلى نفس السيارة، ولم تنجح محاولاتنا للإفلات، أين يأخذوننا؟ هل سيجبروننا على العودة إلى المنزل؟ هل سيجبرونني على الزواج من العجوز؟ هل يريدان الضرر بنا؟ يا إلهي، ساعدنا.

كانت السيارة تشبه السجن، تحمل قفصاً كبيراً حديدياً في مؤخرتها، منفصلاً عن حجرة السائق تماماً، وضعونا فيه، وأقفلوا علينا بقفل محكم، وركبا السيارة لينطلقا بنا.

ضرب أحمد الأقفال دون جدوى، هذه المرة نحن حبيسا الحديد، لا نستطيع أن نكسره كما نكسر الأخشاب، ماذا سنفعل؟

أمسك أحمد بالقضبان وبدأ يفكر، ليس لديه الوقت الكثير، هل انتهى أمرنا؟

توقفت السيارة عند إحدى الإشارات الضوئية، فرأينا شاباً في الثامنة عشرة، تظهر علامات اللامبالاة في مِشيته، يضع يديه في جيب قميصه البسيط، ويلبس قبعة بسيطة، ويكثر من الإكسسوارات الرخيصة في كلا اليدين وحول الرقبة.

كانت عيونه باردة، وشعره ناعماً غامق اللون، كنتُ لأنتبه إليه حتى لو لم يكن يسر باتجاه مركبتنا.

اقترب من حجرة السائق دون أن ينظر تجاهنا، وسأل بصوت مسموع: هل تعيدان الأطفال إلى أهلهم؟



شعر الاثنان أن الشاب يسخر بهم فحسب، فقالتْ المرأة: لا شأن لك بذلك.

ولكنه قال: لماذا؟ ألا تستطيعان أن تعيداني إلى أهلي، لقد ضعتُ عنهم.

قال الرجل: ابتعد عن السيارة واذهب في حال سبيلك.

قال الشاب: هذا ليس عدلاً، أليس هذا ما تفعلان، أريد أن أعود إلى المنزل!

أمسك الشاب بباب السيارة، فصرخ الرجل: ابتعد قبل أن نضربك.

أصبح ضوء الإشارة أخضر، ولكن الشاب كان ممسكاً بباب السيارة، فصرخ الرجل: إذا لم تبتعد فإنني سأدوسك بالسيارة.

صاح الشاب: هذا ليس عدلاً! أنتما سيّئان!

واتجه إلى مؤخرة السيارة حيث كنا نجلس ونراقب ما يجري، وأمسك القضبان، وأصدر صوتاً قوياً وهو يهزها.

اضطر الرجل لمغادرة حجرة القيادة، وأمسك الشاب ولطمه على وجهه بكل قوة، سقط الشاب أرضاً وقد نزف أنفه، وبعد أن هدده الرجل بأن يسلّمه إلى الشرطة عاد إلى حجرة القيادة.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والثلاثون | أحمد

مضتْ ساعتان ولم أفلح في إقناع أحدهم بركوب الباخرة، كنتُ أنوي أن نختبئ ونبحر دون أن يعلم أحد بنا، ولكن تبيّن لي أن هذا شيء صعب المنال.

والأسوأ من ذلك أن منظرنا أثار الريبة، وأمسك بنا شخصان يبدو أنهما مسؤولان عن الأطفال الهاربين، ووضعونا في قفص تحمله سيارة، وساروا بنا ليعيدونا إلى أهلنا بأي ثمن.

لم أكن أعلم بوجود وظائف كهذه، من المفترض أن يكون عملهما جيداً، ولكنني لم أكن أشعر أنهما طيبان أو لطيفان، إنهما قاسيان جداً!

عند الإشارة توقفت المركبة، واقترب شاب غريب الأطوار، كان بارداً مستهتراً، اقترب من حجرة القيادة واستفزهم، كان يطلب إليهم أن يعيدوه إلى أهله، رغم أن هذا ما كانا يفعلان، إلا أنهما كانا أكيدين أن الشاب يسخر منهما، كما شعرتُ أنا أيضاً بذلك.

اقترب الشاب من بوابة سجننا، وأمسك القضبان وحاول فتحها بقوة، مما أفقد الرجل صوابه، وخرج من حجرة القيادة، ولطمه لطمة قوية أسقطت الشاب أرضاً.

شيء واحد لم ينتبه أحدهم إليه سواي والشاب، لقد ألقى بمفاتيحٍ تحت قدمي، وضعتُ قدمي أمامها لأخفيها عن الأنظار، وفعلاً لم ينتبه أحدهم لذلك حتى هالة.

عاد الرجل إلى حجرة القيادة، ورفعتُ المفاتيح من تحت قدمي، وبدأتُ أجرب أياً منها كان مفتاح القفل.

لم تكن الخيارات كثيرة، فقد كان القفل مميزاً، ووجدتُ مفتاحه بسرعة، وقد كنتُ أشعر بعيون هالة تحدق فيما أفعل، وأخيراً فُتح القفل، وخرجنا بسرعة من السيارة، واختبأنا خلف سيارة أخرى حتى لا يشاهداننا وهما يبتعدان.

غادرت السيارة المكان، وبقيتُ مع هالة في أمان، وإلى جانبنا يقف الشاب مبتسماً، نظر إليّ وقال: كان عليك أن تنتظر قليلاً، من الخطر أن تخرج وهما ينظران إليّ.

اقتربتُ منه وقلتُ: شكراً على المفاتيح.

ابتسم وقال: لا عليك، لا يبدو أنكما سيئان.

نظر إلى هالة وسأل: ما الذي يجعلكما تريدان ركوب الباخرة؟

حتى هو انتبه إلينا! يبدو أن الشكوك كانت واضحة في أمرنا! أجبتُ باختصار: الظلم.

يبدو أن إجابتي كانت أكثر من كافية، فقد أشار إلينا أن نتبعه.

سرنا معه إلى الميناء، هناك توقف وقال: عليكما أن تكونـا أكثـر صراحة وصدقاً، فالبحارة ليسوا أغبيـاء، سـأعرفكم علـى بحـار جيـد، ولكن التزما الصدق فيما تقولان.

أشرتُ بالموافقة، فلـم يكـن لـدينا خيـار آخـر، والـصدق كـان في صالحنا.

اقتربنا من أحد البحارة، كان في الخمسين من العمر، تبدو القوة عليه، ووجهه لم يوحِ بالطيبة، فقد كانت لحيته وحواجبه كثيفـتين، ووجهه أسمر من حرقة الشمس، يقف مستاء مـن العمـل البطـيء، ثـم نظر إلى الشاب الذي قادنا إليه وسأله معاتباً: أين كنتَ طول هذه المدة؟ لقد تأخر العمل!

اقترب منه الـشاب مـسروراً، وضـحك قـائلاً: سـأعمل سـأعمل، ولكن انظر ماذا جلبتُ.

أشار الشاب إلينا، هل كان يسخر منّا؟ هل سيبيعنا؟ هـل وثقنـا بمن لا يجب أن نثق به في بداية مسيرنا؟

نظر الرجل إلينا بعيون قاسية، وقال: وماذا أفعل بهما؟

ضحك الشاب وقال: استمع إليهما فحسب.

أشار الشاب إلينا بالاقتراب، وتذكرتُ جيداً أن علينا أن نكون صادقين، الصدق يا أحمد، الصدق، من أين أبداً؟

ولكن هالة كان لها حديث مختلف، فقد كانت تحدق في بطاقة الرجل على صدره، كانت تحدق في الاسم، قرأَتْه: أمين غانم عبد القادر السعيد!

نظرتْ إلى عينيه مباشرة وقالتْ: أنت ابن الحاجّ غانم، صاحب المزرعة الصغيرة.

تعجّب الرجل وقال: هل تعرفان والدي؟

قالتْ هالة: إننا نسكن بالقرب منه، مع والدي وزوجته الجديدة، التي تزوجها بعد وفاة والدتي.

جفل الرجل، وبحركة سريعة سحبنا معه إلى داخل الباخرة، حتى الشاب لم يفهم ما يجري.

كل ما كنتُ أعرفه الآن أننا داخل الباخرة، وسنبحر مبتعدين عن المشاكل، مخلّفين منزلاً قد انهار، حظيرة قد احترقت، والداً طمّاعاً، وزوجة شريرة.

أدخلنا البحار أمين غرفته الخاصة بسرعة، وطلب إلينا ألا نغادرها، وعاد إلى عمله ساحباً الشاب الذي عرّفنا إليه معه.

لم نفهم ما يجري، ولكن بالنسبة لي ولهالة فإن ابن الحاجّ غانم سيكون شخصاً طيباً بلا شك.

انتظرنا في الغرفة، وطال انتظارنا، لم نكن حبيسين حيث كان الباب غير مقفل، بل وكنا في غرفته الشخصية، يبدو أن هذا كان أسلوبه في التكريم.

نظرتُ حولي، كانت الغرفة مجهزة بسرير جميل، وخزائن، ونافذة تطل على البحر مباشرة، وهناك جهاز تلفاز كنتُ فقط أسمع عنه أو أراه في زياراتي للمدينة، ومقاعد موزعة.

الغرفة صغيرة ولكنها جميلة ومنسّقة، يبدو أن له شأناً في هذه الباخرة.

جلستْ هالة على الأريكة، ثم نظرتْ إليّ وسألتْ: هل نجونا؟

جلستُ بالقرب منها وقلتُ: أظن ذلك.

خيّم الصمت على المكان، كنا نسمع وقع أقدام البحارة يعملون بنشاط، ولم يدخل أحد هذه الغرفة كما لم نخرج منها، كنا ننتظر قدوم البحار أمين، علّه يوضح لنا ما يجري، ولكن الحقيقة كانت أننا كنا نفكر فيما سبق، وفيما سيأتي.

لقد خرجتُ من المنزل أفكر في اللحظة التي نهرب فيها

بالباخرة، ولكنني لم أفكر فيما يلي ذلك، فلم يكن ذلـك مهمـاً، كنـتُ أريد أن أبتعد فقط، أبتعد إلى مكـان لا يجـدوننا فيـه إلى الأبـد، ولكـن الآن أشعر أن الأمر قد اختلف، لقد ابتعدنا منذ الآن، ولكن إلى أين؟

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والثلاثون | هالة

سألتُ أمي ذات يوم: هل الحاجّ غانم والدك؟

أجابتْ: لا.

سألتُ: فلماذا تعتنين به وتنظفين له منزله؟

ربّتتْ أمي على شعري وقالتْ: إنه حاجّ كبير في السن، لا يستطيع القيام بجميع الأعمال، فنقوم بمساعدته، إنه جارنا العزيز، كما أنه يحبكما كأحفاده.

رن اسم الحاجّ غانم في أذني عندما اتهمتْه الأفعى بالسرقة، الحاجّ غانم عبد القادر السعيد، كنتُ أسمع اسمه الثلاثي للمرة الأولى، ولكنه ظل عالقاً في ذهني إلى أن قرأتُه على البطاقة، أمين غانم عبد القادر السعيد.

سحبَنا معه إلى الباخرة، وأجلسنا في غرفته الخاصة، وغادر.

جلستُ على الأريكة أفكر، ماذا يجري؟ وكيف حدث كل هذا بسرعة؟ ومن يكون ذاك الشاب الذي ساعدنا في الهروب، ولماذا فعل ذلك؟ ولماذا لم يسألنا أمين عن السرقة التي قام بها والده؟ أريد أن أراه لأخبره على الفور أن والده بريء!

وهل انتهتْ متاعبنا إلى الأبد؟ هل نجونا؟

نظرتُ إلى أحمد بعيون ملأى بالأسئلة، وأعلم تماماً أن وجهه كان خالياً من أي إجابة لأسئلتي أو أسئلته، ولكنني رغم ذلك سألتُ: هل نجونا؟

فأجاب إجابة صادقة: أظن ذلك.

لم يكن الظن كافياً، ولكن هذا ما كان يملكه، كما لم أكن أملك أكثر من ذلك، كل ما أفكر فيه الآن أنني أنتظر دخول أمين لأخبره بصراحة عما جرى مع الحاجّ غانم، عليه أن يعلم أن والده إنسان عظيم وشريف.

شعرنا بالباخرة تهتز، يبدو أننا نتحرك، بدأتْ دقاتُ قلبي تتسارع، كما شعرتُ بها تنبض في قلب أحمد أيضاً، نظرنا إلى بعضنا، ثم ركضنا إلى النافذة لنشاهد البحر يتموج كعادته.

لم تكن لنا خبرة في البحار، لم أعرف هل كنا نتحرك مبتعدين أم لا، ولكن باب الغرفة قد فُتح، ودخل أمين أخيراً.

ركضتُ إليه، وقبل أن أسأله عن تحركنا قلتُ له دون أن أفكر: الحاجّ غانم كان مظلوماً، إنه إنسان شريف، لم يسرق أبداً.

وضع أمين يده على كتفي برفق وقال: أعلم ذلك.

كان أمين هادئاً رغم ضخامته وصرامته، جلس على سريره

فجلسنا على الأريكة مقابله، فقال: هل هربتم منها؟

كان سؤالاً غريباً من شخص نقابله لأول مرة، ولكننا لم نكن لنكذب، قال أحمد: نعم.

تنهد أمين وهز رأسه وقال: لم أقابل في حياتي من هو أكثر خبثاً وشراً منها، إنها داهية.

كانت هذه المرة الأولى التي نسمع فيها نعتاً سيئاً لزوجة أبي يخرج من فم غير أفواهنا، ولكنه نظر إلينا وقال دون اكتراث لردة فعلنا: لقد مات والدي منذ سنتين.

جفلتُ وأحمد، ولكن أميناً تابع: مات في السجن، مات لصّاً خسيساً، ولم يُعنه أحد، أظنه لم يتحمل التهمة والمعاملة السيئة في آخر العمر، لقد كان كبيراً ضعيفاً.

فتح أحمد فمه لينطق ولكن أميناً تابع دون أن ينظر إلينا: لقد كانت من فعل به ذلك، تلك المجرمة، ماذا تريد من عجوز في آخر عمره؟ تضع له الجواهر في منزل خشبي بسيط، وتبعث إليه بتهمة واضحة صريحة، تسجنه وتقتله، لن أسامحها ما حييتُ.

نظر إلينا، وفي عيونه أسى واضح، وقال: لقد هربتما من شيطان، لكما أن تفعلا ما تشاءان في الباخرة، أنتما حرّان.

أحرار! أحقاً؟

نهض أمين وفتح الباب وقال: تستطيعان التجوال بحرية، ولن يتعرض أحد لكما، أنتما في ضيافتي، وستكون لكما غرفة خاصة.

لم يتحرك أحدنا، كانت قدمي باردتان كالثلج، وكذلك لم يحرّك أحمد ساكناً، كانت آثار الصدمة ما تزال بادية على وجهينا، وقد علم أمين ذلك، وتركنا وحدنا في الغرفة.

نظرتُ إلى أحمد الذي توقع ما رأى، فقد كانت الدموع تسيل على خدي، اقترب مني وعانقني لأكمل البكاء على الطيب الحنون، الحاجّ غانم.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والثلاثون | أحمد

خرجنا من غرفة البحّار أمين لنرقب البحر للمرة الأولى في الحياة من على ظهر باخرة كبيرة.

كنا نتحرك، كانت الباخرة تبتعد عن الشاطئ، وكان الناس يلوحون وهم يودعون المسافرين.

نظرتُ حولي، فوجدتُ الشاب الذي ساعدنا يلوّح بيده مودعاً الناس على الشاطئ، اقتربتُ منه لأسأله: هل تودع عائلتك؟

أجاب مبتسماً: ليس لدي عائلة هنا، فأنا لستُ من هذه المدينة.

نظرتُ إلى الناس وسألتُ: إذن من تودع؟

نظر إليّ وما تزال الابتسامة مرسومة على وجهه وقال: الناس.

كانتْ الغرابة تبدو على الشاب منذ التقينا، ولكنني أيقنتُ الآن أنني فعلاً أتعامل مع شخص غريب الأطوار، سألته متأخراً: ما اسمك؟

أجاب: فيوج.

لم يكن اسماً مألوفاً، ولكنه تابع التلويح للناس في الشاطئ بسعادة، فنظرتُ إلى الشاطئ وقلتُ: شكراً لمساعدتنا.

سأل: أي مساعدة؟

نظرتُ إليه وقلتُ: لقد ساعدتنا على الفرار من السيارة.

ضحكَ وقال: آه، ذاك السجن، أي شخص كان ليفعل ما فعلتُ.

لم يكـن ذلـك صـحيحاً، ولكـنني اكتفيـتُ بـالنظر إلى الـشاطئ يبتعد، كان الناس يلوحون بحرارة، والدموع تجري في عيون الـبعض، ماذا عنّا؟ أين من يودعنا؟

في هذه اللحظة لمحتُ بين الجمـوع المحتـشدة شخـصاً يـركض، إنه والدنا! دفعتُ رأس هالة إلى أسفل، وانحنيتُ خـشية أن يلمحنـا، ولكن لا يبدو عليه أنه رآنا.

قالتْ هالة: إنه يبحث عنّا!

طمأنتها: إننا بخير هنا، لن يصل إلينا.

حدّقنا به يسير بين الناس، ينظر هنا وهناك، كان القلق واضحاً عليه، وكان يستفسر من بعض الناس، يسأل يميناً وشمالاً.

قالتْ هالة: إنه وحده.

أشرتُ بالإيجاب، فقالتْ: إنها ليستْ هنا.

قلتُ: بالطبع لا.

فقالتْ هالة: إنه بدونها... يبدو أباً.

أفهم تماماً ما تشعر به هالـة، فـلا أذكـر آخـر مـرة حنـا فيهـا والدي علينا، ربما عندما كانتْ أمي على قيد الحياة، كـل مـا حـلّ بنـا

كان بسبب تلك الدخيلة، أمّا والدي...

توقف والدي بين النـاس، وتلفّـتَ كـثيراً دون جـدوى، لا أظنـه توقع أن نكون على متن إحدى البواخر، فلم يكن صعود إحداها بـالأمر السهل، ولولا أمين لكنّا ما نزال هناك.

قطع صمتنا صوتُ فيوج: لماذا تنبطحان هكذا؟

وقفتُ بعد أن أصبحنا على مسافة بعيدة من الـشاطئ، وأجبـتُ: لا نريد لأحد أن يعلم أننا غادرنا.

قال فيوج: يبدو أن حياتكما كانت صعبة، البحّار أمين تعـاطف معكما بسرعة.

قلتُ: لقد كان والده عزيزاً علينا.

ابتسم وقال: شيء جميل، الدنيا صغيرة جداً.

سألتُ: هل من عملٍ لنا على متن الباخرة؟

دُهش فيوج وقال: ولكنكما ضيفان هنا.

أكّدتُ عليه قائلاً: لن نكون عبئاً علـى أحـد، نريـد عمـلاً إلى أن نصل إلى أول مرفأ.

حدّق فيوج فينا وسأل: ماذا تحسنان؟

نظرتُ إلى هالة التي كانـتْ تنظـر إلـيّ بعيـون فيهـا مـزيج مـن

الابتسامة والحزن، وقالتْ: أي عمل.

ذهبنا مع فيـوج إلى المطـبخ، كـان كـبيراً ونظيفـاً، وكانـت هالـة سعيدة به، فهو أكبر من مطـبخ منزلنـا، ويحـوي أدواتٍ تراهـا للمـرة الأولى.

كانـتْ هالـة سـعيدة بهـذا العمـل، فتركناهـا لتـتعلم الأطبـاق الجديدة من الطباخين، بينما نزلنـا أنـا وفيـوج إلى القبـو، حيـث كـان هناك الكثير من الأمتعة للنقـل، وطلـب إلـيّ فيـوج أن أتحـرّى سـلامة الأمتعة، ولكنني طلبتُ إليـه أن أعمـل علـى سـطح البـاخرة، فلـم أكـن أحب العزلة في الأمـاكن المظلمـة، كمـا كـان هـذا المكـان يـذكرني بقبـو المنزل، وما له من أثر سلبي في حياتنا.

عدنا إلى ظهـر البـاخرة، وعملـتُ في التنظيـف ونقـل الـصناديق، وأي عمل كان يُطلب منّي كان أسهل من الأعمال في منزلنا.

حان وقتُ الطعام، تم توزيعه علـى البحـارة بينمـا تناولتُـه مـع هالة في مطبخ الباخرة، كانت هالة تشرح لي مكونات الأطباق بسعادة، والدور الذي قامت به في تحضيرها.

نظرتُ إلى الكؤوس على الرف، فنهضتُ وأخـذتُ ثلاثـة منهـا، وقلبتها على الطاولة، فهمـتْ هالـة أنـني أريـد أن ألاعبهـا، فوضـعتُ

قطعة من الخبز تحت إحداها، وبدأتُ أقلب الكؤوس بسرعة.

توقفتُ عن التقليب وقد ظننتُ أنني قمتُ بعمل جيد، ولكن هالة وضعتْ يدها على الكأس الصحيح بكل بساطة، وقلبته لتظهر قطعة الخبز تحته.

خاب أملي، مازلتُ لا أحسن تقليب الكؤوس! حاولتُ مرة ثانية بسرعة أكبر، ولكن هالة اختارتْ الكأس الصحيح بكل بساطة!

دخل فيوج المطبخ، ووجد الكؤوس المقلوبة، فسأل عما نفعل، فشرحتْ له هالة اللعبة ببساطة، فابتهج وجلس ليجرب حظّه.

كان الإحباط قد ساورني، ولكنني قلّبتُ الكؤوس أمام فيوج كما أفعل أمام هالة، يميناً ويساراً، توقفتُ عن التقليب ليختار فيوج الكأس الذي يظن أن قطعة الخبز تحته، ولعجبنا أنا وهالة فقد اختار كأساً فارغاً!

نظرتُ إلى فيوج مندهشاً، كما وضعتْ هالة يدها على الكأس الصحيح ورفعته لتظهر قطعة الخبز، فصفّق فيوج مبتهجاً: هذا جميل جداً! أنتَ بارع حقاً!

دُهشتُ لذلك، وكانت الدهشة بادية على وجه هالة أيضاً، ولكن فيوج أمسك بذراعي، وحمل الكؤوس الثلاث بيده الأخرى، وخرج بي

إلى سطح الباخرة، ونادى في البحّارة: أيها البحّارة، إليكم ما تستمتعون به! لعبة جميلة، ومن يكسب سيحظى باستراحة إلى الغد.

ماذا يظن أنه فاعل؟ اجتمع البحارة بسرعة طمعاً في الاستراحة، ولكنهم أيضاً كانوا متلهفين إلى شيء من المرح وسط العمل والملل.

جلس حولي ما يقارب العشرين بحّاراً، ووضع فيوج طاولة وقلب عليها الكؤوس، وحمل قرشاً وضعه تحت إحداها.

بدأتُ تقليب الكؤوس، أشعر بتوتر، لستُ أتقن اللعبة إلى هذا الحد، ربما يحصل جميع البحارة على استراحة، ماذا أفعل؟

يمين ويسار، أوقفتُ تقليب الكؤوس أشعر بيدي ترجف، وقلبي يدق، سيكون من المخجل جداً أن يحزر جميع البحارة الكأس الصحيح! ولكن لدهشتي، فقد اختار أول بحّار الكأس الخاطئ، رفع الكأس فلم يكن القرش هناك، هتف جميع البحارة سعداء، وزادت حماستهم، وصفّق فيوج فرحاً، فقد وضع ثقته فيّ وقد تعرّفنا على بعضنا منذ سويعات قليلة!

قلّبتُ الكؤوس ثانية، وجلس بحّار ثان يرقب تحركاتي، يميناً ويساراً، إلى أن وضع يده على كأس وقلبه، فلم يكن القرش هناك! هتف البحارة ثانية، وسادت الفوضى، ودهشتُ أكثر عندما لم يحزر

أحد من البحارة الخمسة عشر أياً من الكؤوس الصحيحة.

يبدو أنني أصبحتُ أجيد اللعبة، أو أن البحارة كانوا أصحاب ذكاء منخفض، فلم تكن هالة لتخطئ الكأس الصحيح ولو لمرة!

حتى فيوج عاود المحاولة الفاشلة، لم ينجح أحد! هذا إلى أن حضرتْ هالة وعلامات الدهشة على وجهها، طلب إليها فيوج المحاولة، فجلستْ أمامي تنظر إلى الكؤوس.

لم تخطئ هالة الكأس الصحيح مرة واحدة، كنتُ ألاعبها دائماً ولكنني لم أفلح يوماً في النجاح، واليوم ككل يوم آخر، فقد حزرتِ الكأس الصحيح على الفور.

هتف البحارة وصفقوا جميعاً، نظرتْ هالة إليهم في دهشة، لايبدو الأمر صعباً عليها، الآن فقط عرفتُ أن هالة كانتْ ماهرة، ولكنني لم أكن فاشلاً، كانتْ سعادتي غامرة كون هالة، أختي العزيزة، هي من حزرت اللعبة.

■ ■ ■

■ الفصل الأربعون | هالة

لقد زرنا هذا الشاطئ من قبل بصحبة والدتي، بينما كان أحمد متلهفاً لمراقبة البواخر الكبيرة، كنتُ أريد أن أشاهد الأسماك في البحر، في النهاية خاب أمل أحمد لأنه لم يستطع الصعود إلى الباخرة والتجول فيها، وخاب أملي لأنني لم أحظ إلا برؤية الأصداف التي يلقيها البحر على الشاطئ، بينما تختبئ الأسماك الجميلة بعيداً في القاع.

اليوم يركض أحمد على سطح الباخرة، وأنظر أنا من نافذة المطبخ لأراقب الأسماك في الماء، منظر خلّاب، أسماك من مختلف الألوان والأحجام تحوم في الماء.

شاركتُ في تحضير طعام البحّارة، كان عدد الأطباق كبيراً، والوجبات صغيرة، ولكننا حرصنا أن تكون ذات قيمة غذائية كبيرة.

لم تكن الأصناف التي يحضّرها الطهاة هنا تشبه الأصناف التي كنا نتناولها في البيت، فمعظمها كان يحوي الغذاء الدائم: السمك. ولكنها كانت شهية جداً.

وعندما انتهينا من تحضير الطعام، قام الطهاة بتوزيعه على البحارة، بينما حضَر أحمد إلى المطبخ لتناول الطعام معي.

كنتُ سعيدة بالعمل هنا، فالطهاة لطفاء، والطعام شهي، والأدوات جديدة وسهلة، إنها تسهّل على الطهاة الكثير.

شرحتُ لأحمد مكونات الوجبة التي نتناولها، وكيف قمنا بتحضيرها، وما الفارق بين ما نحضّره هنا وما كنتُ أحضّره في المنزل، وكان سعيداً بالاستماع إليّ.

وعندما انتهينا من الطعام، بدأ أحمد يرفّه عن نفسه بلعبته المفضلة، الكؤوس الثلاثة، كان يقلبها بسرعة ومهارة، ولكن ما كنتُ لأخطئ الكأس الصحيح مهما تحركت الكؤوس، فقد كانت حركتها انسيابية منطقية، الغريب في الأمر أن فيوج والبحارة ما كانوا ليحزروا الكأس الصحيح!

ما إن وضعتُ يدي على الكأس الذي يحوي القرش، حتى هتف البحّارة فرحين، كان ذلك غريباً، ما المثير في شيء كهذا؟ كيف لهم أن يخطئوا الكأس الصحيح؟

هتف فيوج: اليوم ستحظى هالة بقسط من الراحة.

راحة! أنا لم أتعب حتى!

صمتَ البحّارة بسرعة عند سماعهم صوت أمين: ما هذه الضجة؟ ماذا تفعلون هناك؟

انتصب جميع البحّارة، وقال فيوج: نحظى بلحظة من المرح.

سقطتْ عين أمين عليّ وعلى أحمد، ثم قال: كلٌّ إلى عمله.

انفضّ جميع البحارة في ثوان، حتى فيوج تركَنا ليتابع عمله، حَملتُ الكؤوس إلى المطبخ، بينما أمسك أحمد ممسحة ليمسح أرض السفينة، نظر إليه أمين وقال: ماذا تفعل؟

أجاب أحمد: أساعد في التنظيف.

أشار أمين إليه أن يحضر إلى غرفته، وكذلك إلي.

تبعناه إلى غرفته الخاصة، جلس على الأريكة وقال: من طلب إليكما أن تعملا؟

أجاب أحمد: لقد طلبنا ذلك بأنفسنا، لا نريد أن نكون عبئاً على أحد.

قال أمين: أنتما ضيفان هنا، وليس عليكما أن تعملا، أتفهمان ذلك؟

قلتُ: لم يسِئ أحدهم إلينا.

قال أمين: لقد ركبتما الباخرة لأنني أمرتُ بذلك، ولم أكن لأستخدمكما فيها.

لم يكن لدينا ما نقول، فقال: اذهبا واستمتعا بوقتكما.

رغم أن ما يقوله كان جميلاً، إلا أنه قاله بصلابة وخشونة، يبدو أن هذا كان أسلوب البحّارة، ولكنه لا يخلو من الرقة والشفقة.

هكذا أمضينا ثلاثة أيام في الرحلة، كان البحر يحوطنا طول الوقت، ثم ظهرت اليابسة في اليوم الرابع، انتابني شعور بالقلق، لقد كنّا آمنين هنا في الباخرة، أين سنذهب الآن؟ وما هذه المدينة التي وصلنا إليها؟ وهل هي آمنة ذات شعب طيب أم خلاف ذلك؟

أظن أن هذه الأسئلة كانت تدور في ذهن أحمد أيضاً، فقد كان يحدّق في اليابسة بعيون حائرة.

الآن نستيقظ من الأحلام الوردية لنفكر بمنطقية، نحن طفلان ليس لنا من أحد في هذه المدينة، ولا نملك نقوداً، ولا معيلاً، ومن الصعب أن نجد عملاً، أين سننام، وماذا سنأكل؟ بدأتُ أقلق، انتابني شك فيما فعلنا، ولماذا رضي أمين اصطحابنا؟ كان عليه أن يخبرنا أن الدنيا لا تستقبل الأطفال، وعلينا أن نصبر في المنزل.

تذكرتُ بدراً، فهززتُ رأسي، لقد كان أحمد على حق، علينا أن نهرب، وأي مكان أفضل من المنزل، وقد كان قرار المغامرة الخيار الوحيد أمامنا.

عليّ أن أعترف أن أحمد يقرر ما هو في مصلحتنا، وليس علينا

أن نتراجع الآن، نحن معاً وعلينا أن نجد الحل معاً.

أمسكتُ يد أحمد، فقاطعتُ أفكاره لأقول: المهم أننا معاً.

ابتسم أحمد في ارتياح، فقد كنتُ أفهم ما يفكر فيه، ولستُ نادمة على الخطوة التي خطوناها، وليس علينا أن نفكر في الماضي، الآن علينا فقط أن نفكر إلى الأمام.

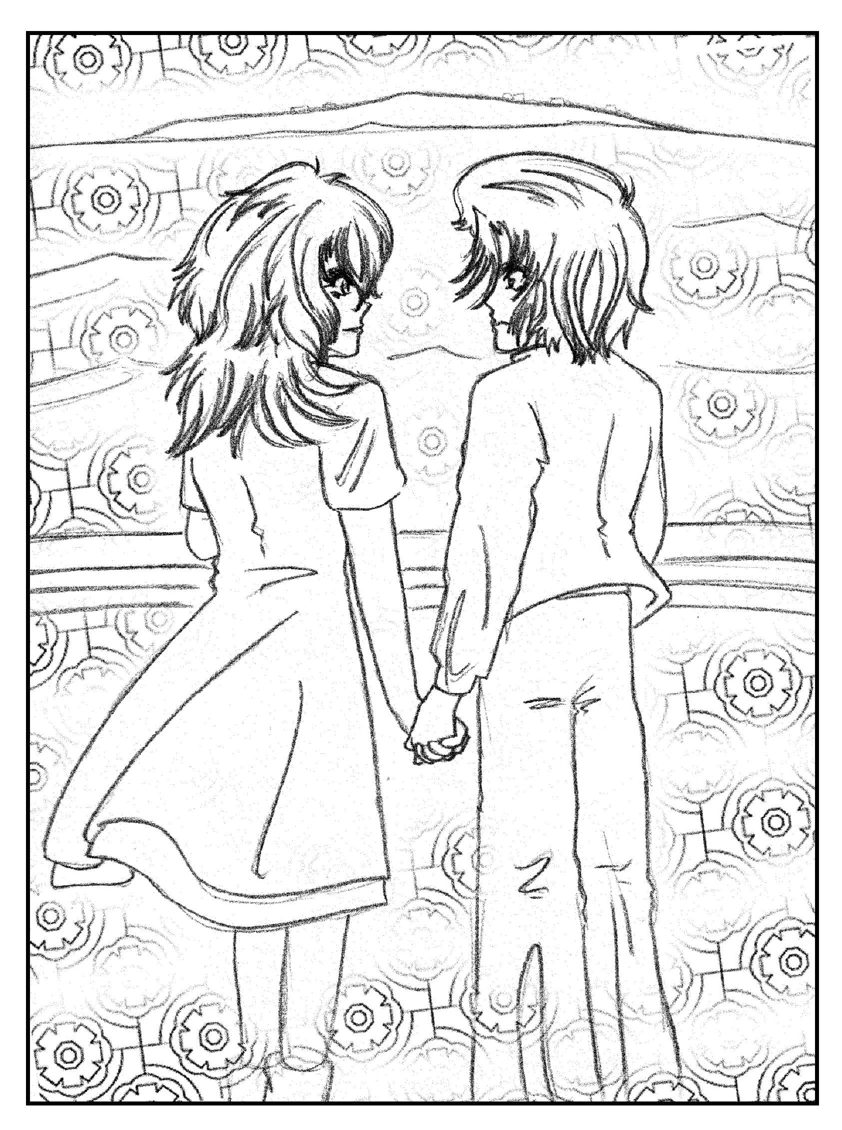
فها هي ذي أرضنا الجديدة، وفي مكان ما سيكون منزلنا الجديد.

هنا البداية، وما تركناه كان كابوساً وقد انتهى.

هنا نبدأ معاً، ونمضي معاً، ولسنا بحاجة إلى أحد.

أنا وأحمد...

■ ■ ■



■ ■ ■

تم بحمد الله الجزء الأول، يتبع الجزء الثاني...